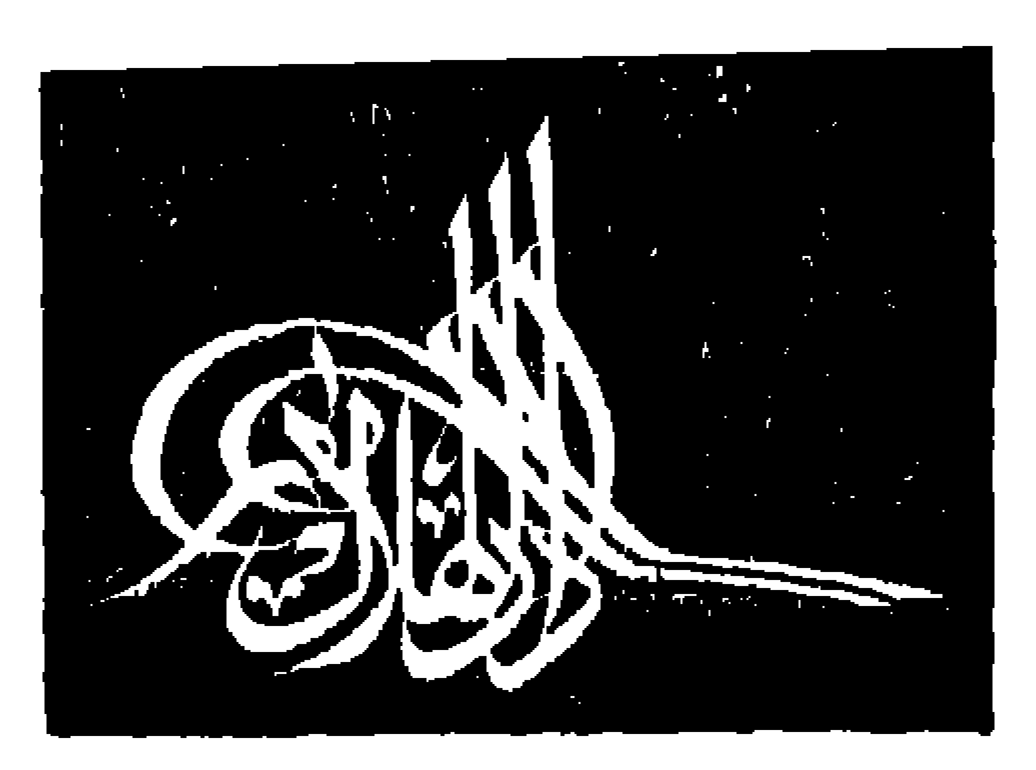

كتاب
الهلال
وأصدقاء معاصرون
كمال النجمي



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٩ - جمادى الثانى ١٤١٠ - يناير ١٩٩٠ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عباد

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :

لبنان : ٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٦٠٠ فلس ، الكويت : ٥٠٠ فلس ، العراق : ٢٥٠٠ فلس ، السعودية : ٧ ريالات ، البحرين : ١٢٠٠ فلس ، الدوحة : ٨ ريالات ، دبى : ٨ دراهم ، ابوظبى : ٨ دراهم ، مسقط : ٨٠٠ بيسة ، تونس : ١٦٥٠ مليما ، المغرب : ٢٠ درهما ، غزة والضفة : ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية : ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية : ٢ دولار ، ايطاليا : ٣٩٠٠ ليرة ، لندن : ٥٠ر١ جك .

الغلاف تصميم الفنان :
محـــمد أبـو طــالـب

نجيب محفوظ

وأصدقاء معاصريه

بقلم

كمال النجمي

دار الهلال

مقدمة

بين اوائل الستينات وأواخر السبعينات كتبنا المقالات التى يحتويها هذا الكتاب ، خلال عملنا الصحفي حينذاك في النقد الأدبى ، وقد وددت لو ضممت اليها هنا اخواتها الكثيرات ، ولكن حال دون ذلك انه يحتاج الى كتب كثيرة لا كتاب واحد ..

وكان من حسن الطالع أن الكثير من تلك المقالات يدور حول اديبنا الكبير نجيب محفوظ وأعماله فى الرواية والقصة القصيرة خلال ذينك العقدين الحافلين بالتقلبات والتطورات .

ولو اعطتنا الأمانى مقادتها لاستكثرنا فى كتابنا هذا من أعمال الاسماء الكبيرة الأخرى فى تلك المرحلة الخصبة من تاريخنا الادبى والاجتماعى والسياسى ولكن الضرورة اقتضت ان نجتزىء من كل اولئك بهذه الوقفات الوامضة عند عدد من الاسماء التى ملأت الدنيا وشغلت الناس .

ولا يخفى ان الفضلاء الذين ذكرناهم او وقفنا عندهم ، ليسوا هم كل معاصرى نجيب محفوظ ، وليس ما تكلمنا عليه من أعمالهم ، هو كل تلك الاعمال .. ومع ذلك نرجو ان تكون هذه الصورة لنجيب محفوظ وعدد من معاصريه فى تلك المرحلة من الفكر والادب ، قد جمعت من ملامحه وملامحهم ، ومن شجون عصره وعصرهم ما يوافق الحقيقة الجوهرية الشاملة للأدب والادباء فى تلك الايام ..

ونجيب محفوظ رمز متجدد للأدب المصرى خاصة ، والأدب العربى عامة ، واسمه الكبير يجر أسماء معاصريه من مختلف المنازع والاتجاهات ، ويدل عليهم كما تدل عليه اسماؤهم وتنادى اسمه من قريب .. ولهذا كان اسمه فى عنوان هذا الكتاب ، دليلا على اسمائهم جميعا ، لابديلا لها ..

وسوف يبقى نجيب محفوظ ومعاصروه ـ وما اكثرهم وأطيبهم ـ ثلة من النابغين النابهين لا تبرح مكانها فى ضمائر الاجيال المتعاقبة .. أو كما قال شاعرنا «شوقى» فى هذا المعنى :

إذا مرت به الاجيال تترى ... سمعت لها أزيزا وابتهالا

كمال النجمى

نجيب محفوظ و ٢٣ يوليو

ماذا جرى بعد يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟!

بحثا وراء اجابة عن هذا السؤال ، كتب نجيب محفوظ رواية « السمان والخريف » .. وهي تجسيد مختصر لفنه الروائي ، وأول رواية يمس فيها أحداثا تتعلق مباشرة بما جرى بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فيقترب من الحياة اليومية لشعبنا ، أكثر مما اقترب في كل رواياته التى سبقت « السمان والخريف » .

ولا نستطيع بطبيعة الحال تلخيص الرواية تلخيصا شافيا ، فانها بناء عضوى متكامل ..

ولكن يمكن التقاط صورة مصغرة لهذا البناء المتكامل ، تبدو من خلالها بعض ملامح القصة ..

فالبطل شاب مرموق من شباب الاحزاب التى انتهى دورها بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. تفاجئه الحوادث فيفقد اتجاهه ، ويعجز عن مسايرة الاحوال الجديدة ، وينتهى الى الضياع .

والبطل هنا نموذجي ، يمثل قطاعا كبيرا من البورجوازية الصغيرة المصرية المثقفة التى لم تفهم معنى ما جرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ان البورجوازى الصغير بطبيعته يملك فلسفة طبقية

خاصة ، فهو ليس رأسماليا لتكون له فلسفة الطبقة الراسماليه ، وليس اقطاعيا لتكون له فلسفة الاقطاعيين ..
ولهذا يذهب في بحثه عن الفلسفة الاجتماعية الى اليمين فيصبح فاشستيا مثلا ، أو يذهب الى اليسار ليصبح شيوعيا .. وكثيرا ما يركب الموجة المنتصرة ، ويتلون بلونها .

ولكن ٢٣ يوليو دعا البورجوازيين الصغار الى فلسفة جديدة ، ليست الى اليمين الاقصى ، ولا الى اليسار المتطرف.
ومن هنا كانت أزمة مثقفي هذه الطبقة ، وهي أزمة لم يتعرض لها الفلاحون مثلا ، لان مصالحهم ثابتة واضحة في برنامج ٢٣ يوليو منذ الشهور الاولى .

هذا هو الموضوع الهام الذي عالجه نجيب محفوظ في « السمان والخريف » واحاله الى قصة رائعة ..

أن بطل القصة الشاب « عيسى الدباغ » .. كان يعد نفسه لكرسي الوزارة بعد جولة او جولتين في الحياة الحزبية ، ولكن ٢٣ يوليو قلب جميع الصفحات القديمة ، وطوى كل الخطط التي رسمها عيسى الدباغ ! .

ومصير هذا الفرد ، هو الخط الرئيسي في القصة .. انسان له اهداف شخصية : المنصب والثروة والحب والبيت والحياة العريضة ..

الاحداث الشخصية المتعلقة بهذه الاهداف ، تنمو في القصة نموا عضويا يلتحم باوسع الاحداث العامة واضخمها .. كبريات الحوادث لا تتطفل على الحوادث الشخصية الضيقة .. وهذه أيضا لا تدق نفسها بالمسامير

فى جدار الحـــوادث الكبـــار ٠٠ وليس فى الرواية كلها صلات مفتعلة بين مصير الشخصيات وبين التيـــار العام للاحداث ٠٠ أن الحدث الخاص لا يمكن الصاقه بالحـدث العام بوساطة الصمغ أو المسامير !!.

وظهور المسامير والصمغ فى أية قصـــة يدل على عجز كاتبها عن فهم التأثير المتبادل بين المصير العـام والمصير الخاص ، وهذا معناه عجز الكاتب عن التحليـــل الجدلى للتناقضات المتركبة ودفعها فى تيار واحد ، ممـا يؤدى الى أن تصبح القصة كومة من الحوادث المتراكمة المفتعلة !

وهذا هو العيب الاساسى الان فى القصـــــص المصرية « الثورية » التى تمس موضوع ٢٣ يوليو ، فتحـــوله الى خطابة منبرية ، تختلط بحكايات غرامية ساذجة !

وقد خلت « السمان والخريف » من الخطابة تماما عند الحديث عن ٢٣ يوليو ، فمهمة القصصى ليست التصفيق ولا الوقوف على منابر المديح والصاق الحـــوادث بالصمغ والدبابيس !

ويعطينا نجيب محفوظ فى قصته أكثر من مجرد نظـرة الى أحداث السنوات الماضية ٠٠ انه يعطينا تقريبا نظـــرة شاملة للحياة والكون ، والحدث العـــابر يفتح الباب فى القصة لمناقشة الحياة والكون ، بلا حذلقـة ، ولكن بعمق هائل ٠

وأفكاره شعبية تماما ، فالافكار الشـــعبية ليست هى الافكار العامية ، بل الافـــكار التى تخدم التقدم العـام للشعب ٠

ويرفع حواره مستوى الحديث المتبادل بين شـخوص القصة ، الى أعلى نسق يمكن أن يدور عليه الحـوار بين الناس ، ولكن بدون خروج على الواقع ٠٠ ان شيئا ما ٠٠ عميقا جدا يربط هذا الحوار الباهر بما يدور فعـلا بين الناس من حوار ٠٠

ولا يمكن ان ينقل المرء في سطور قصيرة روعة السخرية فى هذه القصة ٠٠ ان بلاغة السخرية تبلـغ القمة على قلم نجيب محفوظ الذى يسمع همسات نفـوس ابطاله ، ثم يضخمها فى لوحات مرسـومة بذكاء ٠٠ وذكاؤه يقفز من سطوره حتى يخيف القارىء (١)

(١) صدرت روايته « السـمان والخريف » فى اوائل الستينيـات واعقبتها الروايات التى نتحدث عنها فى الصفحات التالية .

بيت فى أقاصيص
نجيب محفوظ

هذا البيت قصة ضمن مجموعة قصيرة ، كتبها نجيب محفوظ ونشرها فى عام ١٩٦٥ ·· سبقتها مجموعتان من قصصه القصيرة نشرتا فى عام ١٩٣٨ وعام ١٩٦٣ ·

و « بيت سيىء السمعة » اختير عنوانا للمجموعة ، لانه ـ فيما يبدو ـ يثير التطلع والفضول عند عامة القراء أكثر مما تثيره عناوين بقية هذه المجموعة الحافلة الجديرة بالتأمل ··

مشكلة اجتذاب القارىء الى الكتاب الجيد ، تطل من هذا العنوان ! ··

فحتى نجيب محفوظ ـ وقراؤه ومحبوه مئات الالوف ـ يحتاج ناشرو قصصه الى عنوان يجذب القارىء بأخيلة الجنس

ولكن الذين دفعوا خمسة وعشرين قرشا ـ ثمن الكتاب ـ ليشبعوا فضولهم ، بما وراء جدران البيت السيىء السمعة ، لم يجدوا شيئا ولم يسعفهم التليفون الذى اعتاد الفضوليون ان يشرحوا فيه فضولهم لسكان هذا البيت !

رسم نجيب محفوظ فى هذه القصة البديعة حياة بيت « طلائعى » من بيوت القاهرة فى العشرينيات كان سكانه يحملون بذور افكار جديدة للعلاقات الاجتماعية !

كانت ربة البيت ـ زوجة موظف كبير ـ اول امرأة فى الحى تمشى سافرة فى الطريق بلا برقع أسود أو أبيض ·· وتصحب بناتها الجميلات الاربع سافرات مثلها ·

« وكن يذهبن مرة فى الاسبوع ـ مع الزوج أو دونه ـ الى سينما كوزمو جراف ·· وقد يسهرن فى مسرح من المسارح ، فلا يرجعن قبل الواحدة صباحا ·· والادهى من ذلك كله أنه كان للاسرة يوم زيارة تستقبل فيه بعض الاسر بكامل هيئتها ، فيختلط الجنسان بلا حرج »

أذهلت هذه الحياة الغريبة سكان الحى الذين يتمسكون بالحجاب ، ويختلط فى أذهانهم معنى الشرف والفضيلة ، بكثافة الحجاب فوق وجه المرأة ، وابتعادها عن انظار الرجال ، لا تكلمهم ولا يكلمونها ، ولا تفكر فيهم ·· مهما فكروا فيها !!

« وكان شبان الحى يسيرون جماعات تحت حجرة الاستقبال المتلألئة بالانوار ، يصيغون الى الضحكات المتصاعدة ، وعزف البيان والغناء ، وكلما ظهر فى النافذة طربوش تبادلوا الغمزات والنكات وذهبوا فى التأويل كل مذهب ، وتخيلوا أعجب المواقف »

« لذلك كله لم يكن غريبا ان يذكر البيت مقرونا بلفظ ـ دعارة ـ دون مناقشة ·· وكانت الاسرة على علم بآراء الجيران ومشاعرهم ، ولكنها لم تكترث لذلك أدنى اكتراث » !

هكذا يصف نجيب محفوظ أزمة البيت السيىء السمعة

كما كان يتصوره سكان القاهرة منذ أربعين عاما .

ولكن ماذا حدث بعد ان تغيرت الايام ، وتغيرت أفكار الناس ؟!

ان البيت السيىء السمعة قد صمد لافكار سنة ١٩٢٥ حتى أثبتت الحياة ان الذين اطلقوا عليه اسمه القديم ، كانوا أصحاب عقليات مغلوبة على أمرها ، قضى عليها التخلف ان ترى حسنا ما ليس بالحسن ، وتتوهم السوء والقبح والشر في كل شيء تعجز عن فهمه ..

هذه القصة نموذج لسخرية نجيب محفوظ النابضة بالحيوية، ويستحقق عنوانها فعلا ان يكون عنوانا للمجموعة القصصية كلها ، لانه يلخص براعة السخرية وذكاءها .. فها هي ذي الحياة تدور وتدور ، حتى تقنع الناس ان هذا البيت لم يكن سيئا .. كان السيىء حقا هو المجتمع الذى يعاديه ويدينه !!

لا يمكن تلخيص هذه القصة ، مع أنها قصة قصيرة ، ولكنى لا أذكر فيما قرأت أبلغ منها تصويرا للصراع فى العشرينيات بين دعاة السفورة ودعاة الحجاب ، ثم انطفاء هذا الصراع ، واستسلام الجميع لكلمة التطور والتقدم

هذه القصة ذات اصالة متعددة الجوانب ..

فهى قصة مصرية صحيحة النسب ، لا يمكن ان تنسب لغير المجتمع المصرى فى صراعه ضد بقايا عهود الجوارى والحريم ..

وهى قصة لا يمكن ان تتفتق عنها الا قريحة نجيب محفوظ بالذات ، مكتوبة على هذا النحو ، مرسومة على هذه الصورة !

فهو لم يسرد قصة بطريقة الكليشيهات التى وقعت فيها القصة المصرية القصيرة ، وأخذ بهـــا أكثر كتاب القصة ، حتى الكبار منهم فى السنوات الاخيرة ٠

وانما رمى ـ كالسهام الخاطفة ـ صورا غير مترابطة ، ولكنها متلاحقة ، كأنها وحى العقل الباطن فى حلم سريع ٠

ولم يكد يرمى آخر سهم ، وآخر صورة ، حتى اكتملت القصة شكلا ومضمونا ٠٠ بينما يتخيلها ذو القراءة السريعة العابرة ، مجرد لمسات من هنا وهناك ، لم تكتمل بعد ٠٠

وهكذا استطاع بطريقة ، يمكن أن يقال انها تعبيرية ، أن يمتلك ناصية موضوع واقعى ، ويضعه أمامنا بـــكامل حيويته الواقعية ٠٠

ان بعض الآراء تأخذ على نجيب محفـــوظ انه كثيرا ما يلجأ الى العقل الباطن ينتزع منه عناصر قصصه القصيرة بالذات ٠٠

ويترتب على هذه الاراء ، ان نجيب محفوظ ، لا يعطى فى كثير من قصصه القصيرة مضمونا واقعيـــا ، أو مضمونا تقدميا ٠٠

هذه الاراء تبدو غير عادلة ، لمن يطـــالع قصص نجيب محفوظ القصيرة بتأن ومحاولة للفهم ٠

فان نجيب محفوظ ، يرى وراء كل ظاهر أمام الناس ، باطنا لا يرونه ٠٠ لهذا لا يقف عند ظواهر الاشـــياء ، بل يتتبعها الى اجحارها المظلمة ، وكهوفهـــا السرية ٠٠ وهذه هى قاعدته التى لا يستثنى منها احدا ولا يستثنى منهـــا شيئا

وهو فى ولعه بتطبيق هذه القاعدة ـ بحثا عن الحقيقــة

ـ يلج أحيانا مكامن النفس البشرية ، بجرأة بالغة ، متفهما ما يجرى فيها وهى تكابد الشقاء ، أو تمارس السطوة وتسكر بخمر الانتصار

من خلال هذا العمل الفني الشاق تبدو قصصه القصيرة كأنها لوحات للعقل الباطن تحفل بصور مبتسرة ، قد تكون غير مفهومة •• لانها لا تكتفى بعرض النفس البشرية فى ظروفها المختلفة ، بل تلقى دائما على الحياة والكون نظرة شاملة •• يخال من يطالعها أنها حشو غيبى يغرق الحدث ويخرجه عن الواقع !!

الحقيقة ان قراءة نجيب محفوظ ـ فى قصصه القصيرة ـ تتطلب جهدا ، أكثر مما تتطلبه قراءته فى رواياته الطويلة

وبهذا الجهد فى القراءة ، يمكن أن يأخذ القارىء من هذه القصص القصيرة متاعا فنيا • ويدرك الصلة الوثقى بينها وبين واقع الحياة !!

والمؤكد أن قصص نجيب محفوظ القصيرة ، أصبحت نهبا للتفسيرات المختلفة •

دعك مما يكتبه عنها بعض النقاد •• وخذ فيما يصنعه بها الفنيون الذين يحيلونها الى تمثيليات أو مسرحيات ••

بعضهم يلغى المضمون تماما ، ويغير معالم القصة كما فعل فايز حلاوة في قصة « الخوف » التى أخرج منها مسرحية لفرقة تحية كاريوكا عنوانها « قهوة التوتة » .

ان « الخوف » •• أحدى قصص هذه المجموعة ومن أعلاها شكلا ومضمونا ••

اما « قهوة التوتة » فهى المضمون المناقض لهذه القصة تماما ٠

وحدث تحويرا أيضا في مضمون قصة«سوق الكانتو» التى ظهرت فى تمثيلية ممتازة على شاشة التليفزيون ٠٠
ان هذه التمثيلية ـ برغم جودة التمثيل والاخراج ـ لم تستطع أن تبرز المضمون النهائى للقصة ٠

فان نجيب محفوظ أراد بصراحة أن يقول ان اللص الصغير الفقير الذى سرق النقود ، لم يسرقها الا من لص آخر اقوى منه ، سرقها بدوره من لص ثالث ، أقوى من اللصين معا

ولم يقف نجيب محفوظ بالسرقة عند لص معين ، لانه يرى اللصوص سلسلة لا تنتهى ٠٠

وهو يصور بهذه القصة تسلسل اللصوصية فى المجتمع الرأسمالى ٠٠

أما التمثيلية ، فقد وقفت بحادث السرقة عند اللص الاول والثانى ، وجعلت من الثرى الامثل رجلا شريفا ردت اليه العدالة نقوده المسروقه !

هذا كله ليس مجرد عجز عن فهم قصص نجيب محفوظ القصيرة ، وانما هو تحوير متعمد ، سببه توهم بعض النقاد والمشتغلين بالفن ، ان نجيب محفوظ له عالم خاص ، لا ينبغى التقيد بتفاصيله ٠

وصحيح أن له عالما خاصا به ، ولكنه عالم رحب ، يسع جميع الناس ، ولا يعادى الواقع بل يلتزم به أكثر مما يلتزم كثير من الكتاب الواقعيين ، ولكنه يتناوله من خلال رويته التى تضم جناحيها على الحياة والكون بمشكلاتهما

التى لا يمكن ان يجد لها حلا جاهزا فى كل قصة !!

ومن أجل أن يتمكن من التعبير عن رؤيته الشـاملة عن الانسان فى الحياة والكون ، لم يقف نجيب محفـوظ عند الاساليب المطروقة لفن القصة القصـيرة فى الادب العربى الحديث ، والاداب الاجنبية •• بل ترك عبقـريته الفنية تخلق أسلوبا أو جملة أساليب لصياغة قصصه ••

ومن هنا كثر جرى النقاد وراءه ، يسألونه عن مذهبـه الفنى ! ••

ولكن •• لا نجيب محفوظ يسـتطيع ان يقول : ما هو مذهبه الفنى ، ولا أحد من النقاد يستطيع ان يقول

ان مذهبه الفنى هو هذا الخلق الدائم المتجدد ، يحيـل الحادث اليومى الى مسالة تتعلق بالحياة والكون كما تتعلق بابسط مظاهر الحياة اليومية التى تتشـــكل أمام عيون الناس ، ويمرون بها غير مبالين ••

نجيب محفوظ والشحاذ

الاستاذ عمر المحامى كان يريد ان يهدم العالم القـــديم الذى يعيش فيه مع ملايين الناس ، ثم يبنيه من جديد ..

لكنه فشل في هدم العالم واعادة بنائه كما كان يشتهى ، فانهارت نفسه انهيارا ساحقا ، وتفكك عقله ، وأصبح كل ما في داخله وما حوله منهارا .

انهدم عالمه الذاتي كله .. نفسه وعمله وحياته الخاصة ومثله العليا .. ثم انهار عقله بعد أن اختلطت عليه الامور ، والتبس الحلم بالواقع وقادته الحقائق النسبية الصغيرة الى محاولة يائسة فاشلة لمعرفة الحقيقة المطلقة التى يبدأ منها ، وينتهي اليها كل شيء في الوجود !!

هذا هو بطل رواية « الشحاذ » كما قدمه الينـــا نجيب محفوظ .

ان الاستاذ عمر المحامى بطل « الشحاذ » .. يبدأ حياته مناضلا ثوريا مع اثنين من زملائه : مصطفى وعثمان ..

دخل عثمان السجن ، ولبث فيه عشرين عاما ، ومصطفى ترك النضال واحترف الكتابة الخفيفة المســـلية للاذاعة والتليفزيون .

اما عمر فقد نجا من حرفة الادب الخفيف ، ومن السجن• ونجح فى المحاماة وأصبح من أعلامها وأثريائها ••

ومضت به الحياة شوطها المعتـــــاد ، فتزوج وانجب ، واكتهل وبدأ يتجمد ويمل الحياة ••

الا أن العالم الخارجي الذى فشـــــل فى هدمه واعادة بنائه ، لم يصمد للزمن ، لقد هــدمه أناس اخرون وبدأوا فعلا فى بنائه من جديد ، على أسس لا تختلف فى جوهرها عن الاسس التى أمن بهــا عمر فى صــــباه وآمن بها معه صديقاه الكاتب والسجين ••

ولكن الدنيا التى تهدمت من حول هذا المناضل القديم ، وأخذت تبنى نفسها على غرار أحلامه القـديمة ، لم تثر فيه حماسته ، ولم تخرجه من أطلال عالمه الذاتى المنهار ••

وعندما كان عمر فى صباه مناضلا يعمـــل على بناء عالمه الذاتى وعالمه الخارجى ، لم يكن يقف محايدا بين الافـكار المتصارعة من حوله •

كان ممكنا أن يصبح فاشيا أو صوفيا أو عضوا فى حزب اقطاعى ، ولكن ظروف حياته قادته فى شبابه الى الاشتراكية فانضم فكريا وعمليا الى الشعب •

ولكنه لم يكن اشتراكيا خالصا •• كان مزيجا من ثورى ومن فوضوى فان المجتمع الفج الذى عاش فيه لم يتح له أن ينضج افكاره نضجا كافيا فانحـــرف الى تفجير القنـابل والاغتيال ودخل صديقه « عثمان » السجن بسبب قنبلة

ونجا عمر من السجن ، ولكن نجـــاته ، دفعت به الى اليأس من الكفاح وجدواه •• ولم يجد أمامه الا العمل وفقا للقانون ، ثم التكسب من القانون •

وفي سنوات الكفـــاح الاولى ، كان عمر ينظم الشـعر الثورى .. كان عالمه الذاتي يزخر بالحيوية ويفيضـها على عالمه الخارجي قصائد مشبوبة بالحماسة الثورية

كان التجاوب بين عالمه الذاتي وعالمه الخـــارجي خصبا ولودا ، برغم التناقض بين العالمين .. لان الشاعر الشــاب كان يحلم بتغيير العالم الخـــارجي ، واقامة عالم جديد ، لا يشعر نحوه باحتقار ولا عداوة .. يبنيه بيديه مع ايدى الملايين ، ثم لا يثور عليه ، ولا يثير عليه الناس !

الا ان « عمر » الشاب الصغير الزاخر بالحماسة الثورية الرومانسية ، كان مفتقرا الى خطة علمية للثورة ، منعزلا ، يكاد يكون فوضويا .. فسرعان ما انطوى على ذاته ، وينس من الثورة ..

وفجأة .. اندلعت الحوادث الكبـــار في ٢٣ يوليو ، والعالم القديم بدأ ينهار .

والاحلام القديمة التى نظم فيهـــا عمر أبلغ قصائده ، وأشدها حرارة ، بدأت تطل برأســـها على النـــاس .. وأصبحت حديثا يردده ملايين الناس علنـــا ، لا فى زوايا بعيدة عن الانظار .

كان عمر خليقا أن يمضي فى حياته كمحام ناجح ثرى ، وزوج سعيد ، لولا هذه الاحلام القـديمة التى أطلت عليه وعلى الناس فجأة ، بعد ان تبدلت أحواله كلها ، ولم يعـد شابا صغيرا فقيرا ، هاربا من ركود الطبقـــة المتوسـطة الصغرى ، بل أصبح رجلا كبيرا ينتمي بمصـلحته وحياته ومصيره الى النظام الاجتماعى السابق الذى جعل منه نجما لامعا من نجومه !

لقد قطع التاريخ مرحلة كاملة ، وواجه الشـاب القديم الذى كان يتعجل سير التاريخ فماذا يقول الشاب القديم ، واين يقف من هذا التحول التاريخي ؟

هل ينتقل الى المعسكر المضاد ؟

ولم لا ؟ •• ألم تتغير شروط حياته القديمة التى جعلت منه فى الماضى مناضلا ثوريا ؟!

وهل يستطيع الان ، ان يهزم شروط حياته الجديدة ، وينكفىء الى ماضيه ، بأفكاره وأعماله ؟!

الحقيقه ان « عمر » لا يستطيع ان يقف فى المعسـكر المضاد ، لان وجدانه لم يتعفن ولم يخيم عليه الظلام ••

الا انه ـ فى الوقت ذاته ـ غير قادر على عمل ايجـابى فى المرحلة التاريخية الجديدة

اقصى ما يملك من ايجابية هو ان يقول لنفسه أو لزوجته أو لصديقه مصـطفى : أليس هذا ما كنا نريده ونسـعى اليه ؟!

ولكن •• فى أى وقت جاء هذا الذى كانوا يسعون اليه ؟

الوقت مناسب للناس الذين طال بهم الانتظـار •• مناسب للتاريخ الذى دفع الناس عجلته بأيديهم فاندفعت !

ولكن عجلة التاريخ ـ وا أسفاه ـ دهمت مكتب الاستاذ عمر المحامى ، بينما هو غارق فى ملفات قضـايا المجتمع القديم !

انها مفاجأة طاحنة ، لا يسـتطيع ان يواجهها بجنـان ثابت ، ولا بعقل ثابت ••

ربما حاول ان يتماسك ، ولكنه وجد نفسه يتمزق تحت رحى المفاجأة الطاحنة ، ثم أخذ يتساقط ويتفتت !!

وعندما ذهب الى عيـــادة الطبيب الـكبير يتشبث به ويسأله علاجا كان الوقت قد فات .. لمفاجأة اسـتحالت أزمة عميقة الجذور .. والتـــاريخ كله يجثم على صدر الاستاذ عمر ، فكيف يتنفس !؟

لم يكن الاستاذ عمر مريض الجسد .. كان مريض الروح والعقل .

وعندما سأل طبيبه دواء لعلته كان يغالط نفسه ، فهـو يعرف الحقيقة التى لا يعرفها الطبيب ، وفى أعماقه يتمدد أخطبوط اليأس من الشـفاء .. وكل ما يجرى حوله فى الدنيا يصرخ فى وجهه : لا علاج !

لا علاج !؟ ..

ثمة علاج .. ونجيب محفوظ يبدأ مع مريضه المسكين رحلة الشفاء

وكالعادة .. يأخذ نجيب محفوظ بطل روايته الى قمـة عالية جدا ؛ يلقى من فوقها نظرة شـــاملة ، على المجتمع والكون !

فالحل عند نجيب محفوظ ، لا يمكن أن يتعلق بجزئيات فى المجتمع والكون

والكون والمجتمع معا ، يبهظان كاهل كل من يحاول ان يجد حلا لدى نجيب محفوظ

الفرديون والمغامرون والشحاذون وبائعات الهوى وقطاع الطرق ، يأخذ نجيب محفـــوظ بأيديهم الى ملكوت الكون الكبير ، ويعلمهم البحث عن خلاصهم وحقيقتهم من خـلال البحث عن الحقيقة المطلقة ..

ومشكلاتهم الفردية الصغيرة تنثال من قلم نجيب محفوظ

لتملأ المجتمع كله ، ثم التاريخ كله ، ثم تتخطاهما الى الكون كله .

ولو بحث نجيب محفوظ عن مصير ابرة ، لبدأ البحث من أعلى قمة فوق الكون !

ان الحدث العابر الصغير الفردى يفتح الباب لمناقشة المتجمع والكون .

وهو يناقش قضية الكون والمجتمع ـ هذه القضية المتفجرة المدوية ـ بصوت هامس

وتحويل الدوى المروع الذى يهز قلب الكون والمجتمع الى سطور هامسة فوق الورق ، هو فن نجيب محفوظ .

وذلك بالضبط ما صنعه مع الاستاذ عمر المحامى الكبير الثرى الذى كان قبل ٢٣ يوليو ثائرا اشتراكيا ينتمى اجتماعيا الى الطبقة المتوسطة الصغيرة .. ثم ادركته « القرارات الاشتراكية » وقد اصبح برجوازيا كبيرا ، أو منتميا بمصالحه ومستقبله وحياته كلها الى البورجوازية الكبيرة ..

والاستاذ عمر يشبه فى ظروفه الاستاذ عيسى بطل نجيب محفوظ فى روايته « السمان والخريف » .

كان عيسى من شباب الاحزاب التى انتهى دورها بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. فاجأته ففقد اتجاهه ، وانتهى امره الى الضياع الفكرى والاجتماعى

وبطل « السمان والخريف » نموذج لقطاع من الطبقة المتوسطة الصغيرة المصرية المثقفة ، لم تفهم معنى ما جرى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢

فالمنتمي الى هذه الطبقة لا يقبض بيديه على فلسفة طبقية خاصة

انه ليس صاحب رأسمال .. وليس صاحب اقطاع ، فليس له فلسفة الرأسمالية ولا فلسفة الاقطاع .

ووراء البحث عن فلسفة اجتماعية وسياسية ، يجرى أحيانا الى أقصى اليسار ، أو يقبع فى الوسط ، أو يتجمد فى أقصى اليمين

وكثيرا ما يصبح مجرد نهاز للفرص يركب أمواج الحركات السياسية الظافرة .

وهكذا تأزم الاستاذ عيسى فى « السمان والخريف » وهكذا تأزم الاستاذ عمر فى « الشحاذ » .

الفرق بينهما ان عيسى كان حزبيا ، أما عمر فكان اشتراكيا .

وكما ضاع البورجوازى الصغير الحزبى ، ولم يهتد الى حل لازمته ، ضاع البورجوازى الصغير الذى اعتنق الاشتراكية قبل ٢٣ يوليو وانتمى بأفكاره وموقفه الاجتماعى الى جماهير الشعب !

والذى أضاع الاثنين هو جمودهما عند موقف فردى يتعلق بمصالحهما الخاصة التى فوجئت بالتغيرات العامة .

فالاستاذ عيسى كان يعد نفسه لكرسى الوزارة .. والاستاذ عمر كان قد بلغ من الجاه والكرامة فى المجتمع القديم مبلغ الوزارة أو اكثر ..

لقد دهمتهما كبريات الحوادث وقد اتخذ كل منهما وضعه النهائى حيال المجتمع .. وعرف كل منهما أين يتجه به المستقبل .

ولكن المستقبل نفسه اتخذ وضعا جديدا بالنسبة للمجتمع كله وانطوت الصفحات القديمة ، وقلبت كل الخطط والاحلام !

ان الاستاذ عيسى فى « السمان والخريف » يحلم بأن يجد حلا لازمته فى « انتخابات حرة » .. يتصور ان التاريخ يمكن ان يكر راجعا .

اما الاستاذ عمر فلا يحلم بانتخابات حرة .. انه يحلم بماضيه وينظر الى الاحداث الجسام من حوله نظرة مطرود من الجنة التى كان يبشر بها الناس !!

.. وتبدأ الرحلة الاخيرة للاستاذ عمر ..

ان الطبيب يقول له أنت بخير ، ولا شىء الا السمنة والافكار السوداء . والاستاذ عمر ، لا يرى مهربا من الافكار السوداء ، فهى الزاد الذى يشحن به عالمه الذاتى بعد ان أصبح فارغا من كل زاد ..

أصبح الاستاذ عمر يحملق فى الحياة فتنتابه قشعريرة باردة ، كأنه واقف على حافة بئر مظلمة مهجورة تسكنها الارواح الشريرة ..

وهو يطل فى بئر الحياة الصامتة المرعبة .. يلقى فيها بالاحجار فتقذف فى وجهه رذاذا حادا كأسنة الخناجر ، بينما هو متشبث بحاجز البئر ، مرتاعا من ظلامها ورذاذها ، وفى اعماقه رغبة جارفة تدعوه الى ازهاق نفسه فى المجهول المظلم الذى يقف على حافته !

أين المفر ؟!

ولماذا المفر ؟ .. أليس هذا ما كنت تريده وتبشر به

الناس .. أليس الذى تفر منه الى بئرك المهجورة المظلمة ، هو عالمك الذى بشرت به الناس .. ومن أجله دخل صديقك « عثمان » السجن عشرين عاما ؟!

بلى ! .. هذا ما كان عمر يبشر به الناس .. هذا ما دخل صديقه عثمان السجن من أجله .. هذا هو الحلم القديم .

ولكن الحلم القديم اصطدم بعمر جديد ، تغيرت شروط حياته .. تغير عالمه الذاتى القديم .. تغير كل شىء فيه الا ضميره الانسانى ..

وقد انتفض ضميره تحت وقع التحول التاريخى انتفاضة هائلة ، فاصطدم بواقع حياته الذى بناه ووطده فى ذروة المجتمع القديم !!

وكل ما فعله عمر بعد ذلك بحثا عن دواء ، لم يكن الا هروبا من ضميره القديم وكان هروبه الى الجنس والخمر والشعر هروبا من ضميره ، كان يتصور أن ضميره سيلهث وراءه زمنا ثم ييأس منه ويتركه هاربا مستريحا من عذابه المرير ..

ولكن ضميره لم يتركه .. عذبه ونكل به وطارده فى مكان وكل آن .. وأحاله فى النهاية الى شبه مجذوب ينتظر معجزة من السماء تنقذه وترد اليه ما فات !!

ولكن لا معجزة تنقذه .. ولا حل يأخذ بيده ويبعده عن حافة البئر المظلمة ، الا ان يستجيب تماما لما يفرضه عليه ضمير المناضل القديم .

الثورة تبنى العالم الجديد الذى يحلم به .. فلماذا يتخلف عن الركب ؟ ..

ان تخلفه سيقوده في النهاية الى صحراء جرداء يعيش فيها منعزلا عن العالم ، كأنه ذئب لا يملك في مواجهة العالم الا المخالب والانياب ٠٠

والتناقض القاتل لا يمكن النجاة منه بالامعان فيه ، لان النقيض هنا ليس رجلا ولا امرأة بل ملايين الناس وحركة التاريخ كلها !!

وقد كان نجيب محفوظ يستطيع ان يجد حلا سعيدا موفقا للاستاذ عمر ، كما يفعل كثير من مؤلفي الروايات ، ويعيده الى بيته آمنا مطمئنا ، ويضعه في منصب لائق به في المجتمع الجديد ٠

ولكن هذا هو الحل الخطابي ٠٠ الحل الدعائي البعيد عن الفن ٠٠ لان أزمة الاستاذ عمر المحامي أعمق بكثير ٠٠ أنها أزمة انسان انهدم من الداخل والخارج ، وسحقه ضميره ، وطحنته خيبته الشخصية وهو يرى النجاح الكبير يتم منعزلا عن ارادته التي خيل اليه في شبابه ان مصير العالم كله يتعلق بها

ان نجيب محفوظ ـ الفنان الكبير ـ لم يعقد صلة مفتعلة بين مصير الاستاذ عمر وبين التيار العام للاحداث ٠

انه لم يلفق لقاء بين الحدث الخاص والحدث العام ، بل أخذ بيد بطله المسكين في غمار المجتمع والتاريخ والكون كله ، وجعل من هذا المخلوق التعس محور كل الوجود ، وأقام من تعاسته قضية يبحث كل الوجود عن حل لها ٠٠

ولكن نجيب محفوظ يطوي اخر صفحات « الشحاذ » بدون ان يجد حلا شخصيا للاستاذ عمر ٠

المجتمع يتقدم ، والتاريخ يمضي بلا هوادة ، وتنطوي

صفحات الاســــتاذ عمر ، فانه ـ مهما كان ـ لم يكن الا مخلوقا تعسا واحدا في عالم هائل تضج أرضه وســماؤه بمخلوقات لا حصر لها ذاقت التعاسة وتذوقها ، بين الازل والابد .

وفى مواجهة التعاسة يستطيع الانسان ان يتماسك ، ولكن ماذا يفعل اذا كانت تعاسته تنبع من أحلامه وكانت أزمته الطاحنة وليدة آماله ؟!

لا موعظة يمكن ـ في هذا الموقف ـ ان يســوقها فنان حقيقى الى بطل مأساة مثل الاستاذ عمر المحامى

كل ما يستطيعه الفنان الحقيقى فى هذا الموقف ان يحنو على هذا الانسان الذى ارتطم بالحياة والمجتمع والكون ..

وبعد ذلك فالحياة والمجتمع والكون لا تتوقف ، والتاريخ يمضى فيضع الجديد مكان القــديم ، ولا يربت على كتف انسان يفاجئه الجديد ، فيقف باكيا على اطلال القديم !

نجيب محفوظ فوق النيل

هذا العالم العجيب الكئيب الملىء بالصراحة والعفـــــونة واليأس والأمل البعيد ، يثرثر أصحابه بشراهة عن الحياة والمجتمع والكون .. دعنى أقدمه اليك ..

أقدم اليك أبطال نجيب محفــــوظ فى روايته العجيبة « ثرثرة فوق النيل » :

ـ آنسة سناء الرشيدى .. طالبة بكلية الاداب .. لها تجارب مع الفنانين .. اخرهم الفنان اللامع رجب القاضى نجم السينما المشهور بغزواته النسائية

ـ سنية كامل .. من بنات الميردى دييه .. زوجة وأم وسيدة مجربة .. كنز من الخبرة للفتيــــات الصغيرات اللاتى يطرقن لاول مرة عالم الرجال

ـ « آنسة » ليلى زيدان .. خريجة الجامعة الامريكية . مترجمة تجيد اللغات الاجنبية .. جميلة مثقفة ذات شعر ذهبى حقيقى لا زيف فيه ولا صباغة

ـ انيس زكى .. موظف صــــغير بوزارة الصحة .. مثقف .. طاف بكليات الطب والعلوم والحقـوق ، فمضى بعلومها دون شهاداتها كأى رجل لا تهمه المظــــاهر ..

يعيش وحيدا ويهيم فى الملكوت ، وحياته ممتدة فى الماضى والحاضر والمستقبل

ـ احمد نصر .. مدير حسابات .. له ابنة صغيرة فى سن الانسة سناء الرشيدى طالبة الاداب .. ولكنه زوج لا مثيل له ، فمنذ عشرين عاما لم يخن زوجته ولو مرة واحدة !

ـ مصطفى راشد .. محام معروف وفيلسوف أيضا ، متزوج بمفتشة في وزارة التربية والتعليم .. يتطلع فى فلسفته الى الحقيقة المطلقة ، ولكنه يبحث كذلك عن نموذجه المفضل فى النساء ..

ـ السيد على السيد .. ناقد فنى معروف .. يحلم بمدينة فاضلة خيالية .. اما عن واقعه فهو متزوج من اثنتين ، وصديق للسيدة سنية كامل السالفة الذكر .. ويتطلع الى صداقات أخرى ..

ـ خالد عزوز .. كاتب قصة قصيرة ممتاز .. يملك عمارة وفيللا وله ولد وبنت .. فلسفته الخاصة تجنح الى الاباحية .

ـ « عم عبده » .. حارس العوامة وبوابها وخادمها .. يشترى « الصنف » للساهرين والساهرات فى العوامة .. يقود الى العوامة نوعا معينا من النساء .. يؤدى الصلوات بانتظام ، ويؤذن لصلاة الفجر بلا انقطاع ..

ـ سمارة .. ليسانس من قسم اللغة الانجليزية بكلية الاداب .. صحفية وكاتبة جادة .. وضيف على « الصنف »

ـ وأخيرا ، وليس اخرا .. الاستاذ رجب القاضى ممثل السينما اللامع وساحر النساء ..

هؤلاء جميعا يمكن اجتماعهم فى رواية أو قصة قصيرة أو مسرحية أو أى عمل فنى ، متخذين هذه الاسماء نفسها ، وهذه الصفات ذاتها ٠٠ ولكن مصائرهم فى « ثرثرة فوق النيل » لا يمكن ان تخطر على قلب كاتب او فنان الا اذا كان من طراز نجيب محفوظ ٠٠ اعنى الا اذا كان هذا الكاتب الفنان هو نجيب محفوظ !

هؤلاء الناس افراد من الطبقة المتوسطة الصغيرة فى بلادنا ٠٠ تختلف أوضاعهم فى سلالم الطبقة ، ولكنهم جميعا ينتمون اليها بأصولهم المادية والنفسية والعقلية ٠

ولا تدرى كيف أصبحت عوامة « عم عبده » الذى ينتمى وحده الى طبقة الفلاحين ، منتدى ليليا لهؤلاء الرجال والسيدات والانسات ٠

ان « عم عبده » لا يملك العوامة طبعا ، فهو حارسها فقط ٠٠ وهو الوسيط بين نساء الشارع ورجال العوامة ٠ انه الصلة بين البورجوازيين الصغار المنعزلين فى العوامة ، وبين الشارع الذى يضطرب بمتناقضات الناس فى الحياة الصاخبة التى يتجاهلها أهل العوامة ٠

« عم عبده » هو « خادم السادة » ٠٠ يمثل القوة التى تمسك العوامة ان تميد بمن يثقلونها كل ليلة من الوافدين ٠٠ انه « الحبال والفناطيس والزرع والطعام » ٠ يجلب النساء الى رجال العوامة ثم ينتحى جانبا ويؤدى الصلاة !

والعوامة تظل هامدة طوال النهار ٠٠ ثم تهتز بالوافدين عليها منذ بداية الغروب الى بداية الصباح التالى ٠٠

وخلال اثنتى عشرة ساعة كل ليلة يتلاقى ابطال العوامة وبطلاتها ، وتدور عليهم وعليهن « الجوزة » وينغمسون فى المناقشات فتمتزج كلماتهم بأنفـــاس الجوزة المنبعثة من احتراق « الصنف » !

وخارج العوامة يتكلم الظلام ، فينحدر صوته مع شـعاع نجم كابى الاحمرار قطع المســافة الى « الغرزة » فى مائة مليون سنة ضوئية ..

وهم جميعا يســبحون فى الملكوت .. ويرون هذا من حقهم ما داموا ـ خلال النهار ـ يعملون من أجل الرزق

ولعلك لو رأيتهم قلت : « انهم مصريون .. انهم عرب ، انهم بشر .. انهم مثقفون ، فلا يمـكن ان يكون هناك حد لهمومهم » ..

وهم يردون عليك : « الحق اننا لا مصريون ولا عرب ولا بشر .. نحن لا ننتمى لشىء الا هذه العوامة » !

« وما دامت الفناطيس بحالة جيدة والحبال والسلاسل متينة ، وعم عبده ساهرا ، والجوزة عامرة ، فلا هم لنا »

ولماذا يتعبون انفسهم بالمشاركة فى الحياة خارج العوامة وهم يرون ان « الســـفينة تجرى دون حاجة الى رأينا او معاونتنا .. وان التفكير بعد ذلك لن يجدى شيئا ، وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم » .

وعم عبده واقف بالباب ، وبعضهم يقول له :

ـ عليك ان تبحث لى عن فتاة مناسبة فى الظلام

ـ الليل تأخر وليس فى الطريق شىء

ـ تحرك أيها البنيان

ـ قد توضأت لصلاة الفجر

ـ أتطمع فى خلود أخلد مما أنت فيه ؟ •• تحرك !
وتمضي الليالى بأهل العوامة •• الظلام يتـــكلم خارج العوامة •• والجوزة تدور داخلها •• وعم عبده بالبـــاب يجتلب النساء أو يتوضأ للصلاة ••

« الجنون مرض فى أى مكان ولكنه فلسفة فى عوامتنا • والشيء شيء حيثما كان ، ولكنه لا شيء في عوامتنا •• أيها الحكيم القديم اقدم بعصرك الذى اضمحل فيه كل شيء الا الشعر وأسمعنا الغناء •• حـدثني ماذا قلت لفرعون ••
اقبل الحكيم وهو ينشد :

ان ندماءك قد كذبوا عليك
هذه سنوات حرب وبلاء
قلت :
ـ اسمعنى مزيدا أيها الحكيم
ما هذا الذى حدث فى مصر
فأنشد :
ان النيل لا يزال يأتي بفيضانه ان من كان لا يمتـلك أضحى ••
الان من الاثرياء
يا ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت ••
لديك الحكمة والبصيرة والعدالة
ولكنك تترك الفساد ينهش البلاد
انظر كيف تمتهن أوامرك
وهل لك ان تأمر حتى ••
يأتيك من يحدثك بالحقيقة !

ان « أنيس زكي » البطل الحقيقى لثرثرة النيل ، يعيش التاريخ الانسانى كله ••

يعيش الفساد في عصر فرعون ، كمـــا يعيش الاحلام العريضة فى عصر الفضاء ..

حياته في العوامة ، وخارجها ، تمتد فى التـــاريخ طولا وعرضا ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا

يعيش بلا عقيـدة من أى لون .. يقضى وقته فى العبث لينسى انه ســـيتحول الى رمان عظام .. وبرادة حـديد وازوت ونيتروجين وماء .. بعد عمر طويل ، أو قصير .

« وفى غيبوبة الدوار تختفى جميع الاشياء الثمينـة .. من بين هذه الاشياء الطب والعلم والقانون » .. وكل شىء عنده ككل شىء

ان الدنيا تثقله بالمتاعب ..

واصل المتاعب مهـــارة قرد كان يعيش فى الغابة قبل مليون سنة ، فقد تعـــلم هذا القـــرد « كيف يسير على قدمين ، فحرر يديه ، وهبط من جنة القرود فوق الاشجار الى أرض الغابة .. وقالوا له : عد الى الاشجار والا أطبقت عليك الوحوش ، فقبض على غصن شـجرة بيد وعلى حجر بيد وتقدم فى حذر وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له » .

وهكذا تمضى هذه الثرثرة الرائعة فوق النيل ..

لا « حدوتة » فى هذه الرواية .. كل ما فيها أن الدنيـا تسير بأهل العوامة ، وحياتهم تنمو فوق ماء النيل .

وعسير على القارىء ان يتصور ان مجمـــوعة من البشر كهذه يمكن ان تنمو حياتها حتى تملأ مائتى صفحة ، الا على يد نجيب محفوظ الذى احال الثرثرة الى حياة .. والتقط من الحياة خيط الثرثرة فاطاله الى أبعد مدى مستطاع ..

ليس معنى هذا ان نجيب محفوظ قد اثقل كاهل الحادثة الصغيرة بمعالجة روائية ، فالحـــق ان عبقريته قد أمدت الحادثة الصغيرة بقوة خارقة تحملت كل شيء ..

فالعوامة المنعزلة في النيل برجالها ونسائها ودخانها ، صمدت لكل الاثقال التى القاها فوقها نجيب محفـوظ .. فلم تغرق ! ..

القى عليها الفلسفة والتاريخ الانسانى من أوله الى اخر يوم يعيشه الناس في عصر الفضاء الان .

ولم يكتف هذه المرة بالقـــــاء نظرة على المجتمع والكون تسبح فى نسيج الرواية كله ، كمـــــا فعـــل فى رواياته السابقة ، بل افضى الى ختم الزمان والكون والمجتمع ففضه وسكبه كله فى عوامة الاستاذ أنيس زكى وعم عبده ورفاق الصنف والظلام .

ومن هنا لا يمكن ان يقال ان نجيب محفـــوظ اراد فى ثرثرته فوق النيل ان ينتزع شريحة عريضـــــة من حياة المثقفين المصريين أو الطبقة المتوسطة الصغيرة المصرية بوجه عام ..

فالحقيقة انه انتزع روايته من حياة انسان عصر الفضاء كله ، فى مجتمعاته المختلفة .. فالمصير واحد لكل النـاس .. وجميع أعمالهم تتلاشى فى الاخفاق النهائى

وهكذا وضعت الفلســـــفة الوجودية نفسها فى خدمة رواية نجيب محفوظ .. فالاحساس الفلسفى العميق لكل الثرثرة التى شهدتها العوامة ، هو الاخفاق وتساوى مصير الاعمال ..

ليس معنى هذا أن نجيب محفوظ قد ساق أبطال روايته الى الاخفاق

فالحقيقة أنه تابعهم في نمو حياتهم وصيرورتهم وكأنه يعلن عجزه عن حمايتهم من المصير ..

صحيح أن أمرهم بيده ، ولكنه لم يرسم مصيرهم على أساس الجبرية ، بل تركهم مخيرين وسار معهم !

وقد اختارت لهم دنياهم هذا المآل .. فسار نجيب محفوظ معهم يشيعهم اليه ولا يستطيع ان يمد يده ليمنع وقوع شيء !

فهو في هذه الثرثرة الرائعة ، راوية مصير ، لا خالق مصير متجبر يحكم بما يشاء ..

والوجودية لم تضع نفسها فى خدمته ، بل فى خدمة أبطال روايته .. وهى لم تقنعه ، بل أقنعتهم .

وماذا يفعل الكاتب اذا وقعت فى يده أحدى المشكلات القاهرة ؟

لقد وقعت مشكلة أهل العوامة فى يد نجيب محفوظ ، فلم يستطع ان يقول : هذا هو حلها .. لأنه يكتب فنا ولا يصدر فتاوى ! ..

نجيب محفوظ فى السينما

عندما أشاهد أفلام السينما المأخوذة من روايات نجيب محفوظ ، أتأمل بدهشة عجز فنون السـينما مجتمعة عن مجاراة فن الكتابة بمفرده في عمق التعبير وامتداده داخل النفس البشرية والمجتمع والكون .

وكثيرا ما أجد السينما بفنونهـا الجبارة قاصرة عن تصوير الحياة والكون كما تصورهما الكتابة .

الا أن السينما كثيرا ما وقفت بتعبيرها على قدم المساواة مع تعبير الروائيين والقصصيين الممتازين ، وكثيرا مابعثت السينما حياة قوية فى كتـابات فقيرة الى نبض الحياة ، ولفقت فنا لكتابات عاطلة من الفن !

أما روايات نجيب محفوظ ، فان السينمائيين يبذلون فى اعدادها للسينما كل جهد ، ثم لا يتـاح لهم ان ينقلوا من تعبيرها الفنى الى شاشة السينما الا ماتيسر ، كأنهم يقفون منها على بحر لا ساحل له ! ..

والحق ان السـينمائيين يؤدون واجبهم فى كل مرة ، ويجتهدون غاية الاجتهاد ، ولكن .. كيف يمكن للسـينما أن تنقل الى أسلوبها فى التعبير فيضا من التعبير والتصوير فى كل صفحة يكتبها نجيب محفوظ ؟!

وقد كان هذا موقف السينمائيين فى كل فيلم اخذوه من روايات نجيب محفوظ ..

صحيح أن فيلم « بداية ونهاية » وفيلم « القاهرة ٣٠ » قد أمسكا بالخيوط الرئيسية فى الروايتين كما كتبهما نجيب محفوظ .. ولكن الفيلمين ـ على جمالهما ودقة نسجهما ـ ظلا صورة مصغرة من العالم الكبير الذى رسمه نجيب محفوظ فى « بداية ونهاية » و « القاهرة الجديدة »

ثم جاء فيلم « السمان والخريف » ليؤكد مرة أخرى أن السينما تقف من كتابات نجيب محفوظ على بحر لا ساحل له ، ولا يمكن اغتراف أمواجه بأضخم أناء فنى فى العالم !

وفيلم « السمان والخريف » جميل حقا .. أمين فى الاخذ من النص .. ذكى صبور عاشق لما يأخذ من النص .. ولكن الذى قرا رواية « السمان والخريف » واستفزه الطرب والوجد مع كل صفحة من صفحاتها .. يفتقد فى الفيلم هذا الطرب وهذا الوجد الفنى فلا يجد منهما الا لمحات متفرقة ..

لقد صور محمود مرسى بطل القصة « عيسى الدباغ » بكل اقتدار واخلاص واقناع ، وصورت نادية لطفى « ريرى » بطلة القصة بأبعادها الانسانية، وظلالها ومأساتها ونهوضها من كبوتها .. وهذان البطلان البديعان ، محمود مرسى ونادية لطفى ، هما خير ما فى الفيلم .. وأقرب الشخصيات الى ما كتبه نجيب محفوظ !

وفيما عداهما لم يستطع الفيلم أن ينقل من صفحات الرواية الا صورا عامة ، ولقطات خطابية يبرأ منها النص ، فان النص لا يعقد صلات مفتعلة أو مبهمة بين مصير

الشخصيات وبين التيار العام لكبريات الحوادث .. أما الفيلم فانه اضطر أن يعلق بعض الاحداث الخاصة على « شماعة » الاحداث العامة ، بدون تعليل يقنع الناس بالتأثير المتبادل بين المصير الشخصي والمصير الاجتماعي العام ..

وحسبك نموذجا لهذا كله شخصية « حسن » ابن عم عيسى الدباغ .. فهي شخصية خطابية معلقة على مشجب الاحداث العامة .. لا تدرى أهو ثورى وطني أم انتهازى أزرق الناب ، أم مجرد شبح يلوح في دخان الاحداث ! ..

بقيت « السخرية » كعنصر أساسى من عناصر كتابة نجيب محفوظ

ان نجيب محفوظ هو صاحب أبرع سخرية بين كتاب عصرنا ، فماذا صنع الفيلم فى هذا الجانب الهام من فن نجيب محفوظ ؟

الحقيقة أن احمد عباس صالح الذى أعد الرواية للسينما بذل جهدا ضخما لنقل سمات فن نجيب محفوظ الى الشاشة ، ولم يفته ـ وهو الخبير بفن نجيب محفوظ ـ أن يحاول نقل لمحات من سخريته .. واختار الموقف الساخر الذى يطالب فيه عيسى الدباغ بانتخابات حرة

ولكن أين ما يطالعه المتفرج على الشاشة مما يطالعه فى الكتاب ؟!

نجيب محفوظ
مع عصبة " ميرامار

« ميرامار.» .. رواية نجيب محفوظ .. هل تستطيع السينما المصرية اخراجها ؟!

ان رواية « خان الخليلى » التى تمثلت فيها روعة الرومانسية عند نجيب محفوظ قبل عشرين عاما ، لم تحقق نجاحا كبيرا فى السينما المصرية ولم تحقق نجاحا يذكر فى المهرجانات الدولية ..

لماذا ؟! ..

لان السينما المصرية ـ كما فعلت فى بعض روايات نجيب محفوظ ـ أفرغت « خان الخليلى » من محتواها واحالتها الى مغامرة غرامية ميلودرامية تثير جمهور الدرجة الثالثة .. ان صح هذا التعبير ! ..

لقد جار عليها التسطيح السينمائى فأخفى بناءها الفوقى، وهو فى الحقيقة جوهرها وروحها الفلسفى والاجتماعى والشعرى والصوفى ..

وقد كتب نجيب محفوظ شخصيات « خان الخليلى » مثقلة بالمعانى ، ولكن هذه الشخصيات المرهفة البديعة التى أرقتنا عند قراءتها ليالى طويلة ، ظهرت على شاشة السينما كما تظهر الشخصيات السينمائية التقليدية التى فرضها بعض المخرجين المصريين على ذوق الجمهور .

ان شـــــخصيات « خان الخليلى » كمـــا كتبها نجيب محفوظ ‥ تختلف عن شخصيات الفيلم اختـلاف أناس لا يعرف بعضهم بعضا ، وقد تدلت هذه الشـــخصيات من جوها الرفيع الى الجو العامى الراكد الذى تختنق فيه معظم الافلام المصرية

وقد أفلتت روايتان أو ثلاث لنجيب محفـــوظ من هذا المصير ، وكان ممـــكنا أن تفلت منه جميع رواياته ، لو قيضت لها الاقدار شروطا فنية صحيحة عند نقلها من كلام مكتوب الى صور متحركة

ترى ماذا يحدث لرواية « ميرامار » ‥ أحدث روايات نجيب محفوظ ، اذا أتيح لها أن تظهر فى السينما ؟!

أكبر الظن أن ستتحول الى جريمة قتل ومطاردة عنيفـة تشنها الشرطة على القاتل الاثيم ، حتى تظفر به وتسلمه الى يد العدالة الساهرة على حماية الارواح ! ‥

ولكن ميرامار ، بالرغم من وجود جريمة قتـــل فيها ، ليست رواية دماء وشرطة وسفاح أثيم هارب من العدالة ، وانما هى محاولة بالغة الجـدة والذكاء والرقة للبحث عن الحقيقة فى ضوء الاحداث وفى ظلمات الاحداث كذلك

والبحث عن الحقيقة بين القـــاتل والمقتـول فى رواية « ميرامار » يرهق وجدان نجيب محفوظ وذكاءه وسخريته وحبه للخير والجمال والمثل الاعلى

فالحقيقة ليست نصبا تذكاريا ثابتا من الازل الى الابد امام عيون الناس ، وانما هى حالة المجتمع والانسان والكون فى صيرورتها الدائمة ، وتغيراتها الابدية ‥

وفي كل عصر يرى الانسان وجها للحقيقة كان يحجبه غبار الحقيقة ذاتها ، فان الحقيقة كائن حى يتحرك ويعدو ويثير الغبار خلفه ، وكثيرا ما يضيع الباحث عنها فى غبارها « .. كما ضاع أبو على فى غبار ناقة الحقيقة » .. على حد تعبير شاعر فارسى قديم !

وميرامار .. محاولة للبحث عن الحقيقة عند أناس مختلفين ، بل متقاتلين .. ومحاولة لجعل الحقيقة « حكماً » بينهم يمسك بيديه ميزان العدالة ، حتى لا يقتل بعضهم بعضا .. ولكن غبار الحقيقة يعمى أحدهم فيحاول القتل ، ويعمى آخر فيقترف القتل فعلا

ونجيب محفوظ فى « ميرامار » قوة خفية وراء شخصياتها : عامر وجدى الصحفى المتقاعد الطاعن فى السن .. وطلبة مرزوق الاقطاعى السابق المتصابى الحاقد .. وسرحان البحيرى الشاب الانتهازى وكيل حسابات احدى الشركات .. وحسنى علام بسليل أعيان الريف الذى يحاول أن يخلع ثيابه الاقطاعية ليرتدى ثياب « الرأسمالية الوطنية » .. ومنصور باهى المذيع الصغير الذى تخبط فى الافكار الجديدة وسلك طريقا لا تهديه فيه خفقة من النور .. ثم « زهرة » الشابة الفلاحة الجميلة التى هجرت القرية وأصبحت خادما فى « ميرامار » .. وبقية الشخصيات

ونجيب محفوظ فى ميرامار ـ كما فى رواياته التى سبقتها ـ لا يستبد بخلق شخصياته .. بل يشركها فى خلق نفسها ، فهى تتحرك وتصنع مصيرها بيدها ، وأبطاله يولدون احرارا ، ولهم أن يتحركوا فى الحياة ويختاروا ، ويكابدوا الشقاء ، ويخلصوا أنفسهم منه ، فليس عند

نجيب محفوظ حل موفق سعيد لمشـــكلاتهم ، ولا موعظة حسنة يقدمها اليهم فى أزماتهم ٠

والحل عنده فى « ميرامار » كالحل فى رواياته كلهـا ، ينطلق من جزئيات المجتمع المعاصر والانسان الحى ، ليعم التاريخ بمجتمعاته البائدة ٠٠ والمستقبل أيضا بمجتمعاته التى لا نعرف عنها الا كلمات نظرية ٠٠ بل يعم الكون كله بأرضه وسمائه وفضائه ! ٠٠

وباب المناقشة يتسع للحدث الفردى الصغير ، ويظـل يتسع ويتسع حتى يدخـــل منه المجتمع والتاريخ والكون اللانهائى

وخلال هذا العمل الفنى المدهش ببساطته وتعقيده معا ، تنمو الحياة فى الرواية نمـــوا طبيعيا حتى يلتحم مصير الانسان الفرد بمصير كبريات الحوادث ، بلا افتعال ٠

صـــحيح ان لغة نجيب محفـــوظ توحد بين جميع الشخصيات فى نطقهم كأنهم من أب واحد وأم واحدة وطراز واحد فى أوضاعهم حيال المجتمع والكون ، ولكن شـــيئا دقيقا خفيا فى فن نجيب محفوظ يجعـــل اللغة الواحـدة تختلف مبنى ومعنى من لسان الى لسان ، وتقيم الفارق بين انسان وانسان ٠

وفى كل ليلة يجتمع هذا الحشد من الشخصيات المتنافرة المتأزمة فى بنسيون « ميرامار » ٠٠ على شاطىء الاسكندرية، وتحت سماء شتائها ، كأنهم أسرة واحدة ٠

وكل منهم فى عزلته النفسية ، يتصـــل عفويا بجاره وزميله فى البنسيون ، فتنفتح فى جدار غرفته فرجة ضيقة يرى منها جزءا من الحقيقة

والحقيقة عنده تتعلق بالكون والمجتمع ، كما تتعلق بما يجرى داخل البنسيون ، أو على أبوابه ، أو فى الشارع الذى يطل عليه .

وتتجمع أجزاء صغيرة من الحقيقة أمام عيون نزلاء البنسيون فترتسم لهم صورة عجيبة مدهشة لعلاقة غرام نشأت فى الخفاء بين « سرحان البحيرى » و « زهرة » .. خادمة البنسيون التى كانت تتطلع الى حب يفضى الى زواج ، وتتمنع على اللهو العابر .

وفي ميرامار كانت زهرة تطالع النزلاء .. « بفطرتها الخشنة الفظة الرهيبة ، بصمودها الصلب المغطى بالاشواك ، بآمالها الجنينة في قوقعة مسمومة الاطراف ، بروحها الابدية التى تجذب اليها المغامرين واليائسين ، فتقدم لكل غذاءه »

وقد قدمت غذاء عاطفيا طيبا الى الانتهازى سرحان البحيرى ، بعد أن قال لها : « طوبى للارض التى غذت وجنتيك ونهديك » ! .. وأوشك أن يجن عندما رآها لاول مرة تشترى شيئا من دكان بقال رومى .. « ونفذت عيناه الى وجهها من فرجة بين زجاجات الويسكى وزجاجات الكونياك ، وهواء الخريف بلفحه بدسامته الجنسية »

وتصورت زهرة أن سرحان البحيرى يحبها وأنه سيتزوجها ، ولكنه هجرها بلا مبالاة بعد خلوات الغزل والقبل وأحضان الاشتهاء المكبوت .

كانت حياته الانتهازية تحفر مجراها فى الظلام والفراغ ، وكان يحاول أن يكسب من جميع الظروف على اختلافها .. المد والجزر فى البحر .. كلاهما باب الى الكسب الوفير ، والابله من لا يعرف كيف يربح عند التقدم وعند النكوص

وكانت « الاشتراكية » كلمة طيعة على لسانه فى كل وقت ، تخدم كل معنى يريد أن يصبه فى الاسماع ، ولكن قلبه لم يكن يعرف عنها شيئا ، وحقيبته متخمة بأموال الشركة المنهوبة ٠٠ وعندما اكتشفوا أمره لم يكن لديه حل الا القتل ! ٠٠ ففى هذه المرة لم يكن يستطيع أن يربح

وكانت جريمة القتل التى سيرتكبها تثقله بالتعاسة ، لانه لن يقتل أحدا ٠٠ سيقتل نفسه فقط !

ولما علم نزلاء البنسيون أن سرحان البحيرى مات مقتولا، تساءلوا : من الذى قتله ؟ ٠٠ ولماذا ؟!

وقال لهم منصور باهى وهو يتخبط فى الافكار التى خولط بها عقله : أنا ٠٠ ضربته بحذائى حتى فقد النطق ومات ! ٠٠

ولم يصدقوه ٠٠ مع أنهم جميعا كانوا يودون فى سرائرهم أن يقتلوا سرحان البحيرى بأحذيتهم ٠٠ على الاقل لانه استأثر دونهم بزهرة بعض الوقت ! ٠٠

وعندما قال الطبيب ان سرحان البحيرى قتل نفسه ، وقطع شريان يده بيده ، أدرك منصور باهى أنه ضرب غريمه وهو ميت !

ترى ما هذا الذى حدث لعصبة ميرامار ؟!

من الذى نجا من ساكنى ميرامار ٠٠ ومن الذى اختل توازنه فوق الصراط المستقيم فوقع فى الجحيم ؟!

لقد أحب الجميع « زهرة » ٠٠ أو اشتهوها ٠٠ وتصرفوا حيالها دائما كأنها « رمز » يتسربل بالهيبة ، ولكنه يشع بالفتنة والاغراء ٠٠

وقد مات الانتهازى ٠٠ فماذا عن الاخرين فى ميرامار

هل تضييع « زهرة » الجميلة المحبوبة مثلما ضاع « بو على » فى غبار ناقة الحقيقة .. كما قال الشـاعر الفارسى القديم ؟!

وبعد .. فهل تستطيع السـينما المصرية اخراج هذه الرواية ؟!

هل يستطيع مخرج أن ينقل خطوطها العريضة من الورق الى الشاشة ؟!

انني أرجو لميرامار حظا أحسن من حظ خان الخليلى (١)

---

(١) اخرجت ميرامار فى السينما والتليفزيون ، وكان نجاحهـا فى التليفزيون أكبر من نجاحهـا فى السينما ، لان « الحلقـات » التليفزيونية الكثيرة اتسعت لما لم يتسع له فيلم السينما الواحدة .

نجيب محفوظ فى
خمارة القط الاسود

اعتمد على نفسك وابحث عن خمارة القط الاســـود فى المجموعة الجديدة من قصــــص نجيب محفــوظ ، فليس للمجموعة فهرس يهديك الى موضع قصــــة الخمارة بين ثلاثمائة صفحة تقريبا ، تضم بضع عشرة قصـــة قصيرة متنوعة الاشكال والالوان ..

« خمارة القط الاسود » فى منتصف المجموعة تقريبا .. ستبدأ بها مطالعة المجمـــوعة لانهـــا عنوان لها جميعا .. والحقيقة انها تستحق هذه الصدارة على غلاف المجموعة، كما تستحق أن تتربع فى وســـطها ، تحف بها أخواتهـــا القصص القصيرة عن يمين وعن شمال ..

والشاربون فى خمارة القط الاســـود كانوا سعداء فى ضباب الكئوس .. لا وعى ، لا هموم .. ولكن رجلا تراءى لهم فى ضبابهم عند باب الخمارة .. « كالحجر الصلد ، لا يتأثر ولا ينفعل ولا تنبسط له اســـارير .. أى رجل هذا ؟! .. » ..

« أشار اليهم بحزم صارم : لن يغادر المكان أحد » ..

وطيلة السهرة اذعنوا لهذه الاشارة الصارمة ، وانتظروا خائفين وعيونهم عليه وهو يسد الباب بجسمه الهائل .. .. و « جاءت الاكواب الجهنمية .. أفرطوا فى الشراب،

دارت الرءوس ، انزاحت الهموم بسحر ساحر ، رقصوا فوق مقاعدهم ، غنوا معا : عيد الانس هلت بشايره » !

خضع الشاربون للرجل الرابض على الباب ساعة من الليل لا يعرفون مداها ، فى غيبة وعيهم وارادتهم ، كأنهم خاضعون للقضاء والقدر ، وكان ثمة غناء أو بكاء ، ولكن ما الحكاية ؟! ..

فى « لحظة التنوير » .. ان صح هنا هذا التعبير ، انتهت ليلة الشاربين بلا تنوير .. كانت جميع لحظات القصة عندهم ظلاما فى ظلام ، فالرجل الصلد المغير عليهم واقف على باب الخمارة ، ولا أحد من الشاربين المحملقين فى الباب يدرى من هذا الرجل الصلد الذى أغار عليهم فجأة ، ومنعهم ان يعودوا الى بيوتهم ! ..

لم يفهم الشاربون شيئا مما لاح لهم فى لحظة التنوير ، عندما ارتفع صوت الجرسون العجوز ينهر الرجل القوى المتين ، الصلد المخيف ، الجالس بالباب ، صائحا به :

ـ اصح يا كسلان ، والا هشمت رأسك! ..

لو افاقوا ثانية واحدة عندئذ لفهموا ، ولكن ذهول الكأس أعجزهم عن التعرف على « مرمطون الحانة » وقد اتخذ مكانه عند بابها ، ضخما مسكينا محنى الهامة من التعب والذل والانكسار ..

وحتى عندما أقبل الرجل الضخم يرفع الكئوس وينظف الموائد ويجمع النفايات ، لم يفهموا شيئا ..

لم يفهموا أنه الرجل الذى تراءى لهم طوال الوقت صلدا هائلا مرعبا ، وبصائرهم تائهة فى ضباب الكئوس ..

كان طول الليل متسكوما عند الباب كالثور البائس ، ينتظر رحيل المخمورين الثرثارين •• وكانوا هم طول الليل يتساءلون : لماذا يرفع علينا هذا السيد العظيم سيفه البتار، يمنعنا الخروج الى بيوتنا وقد طال ثواؤنا فى هذه الحانة اللعينة ، امتثالا لأمره ؟! ••

وقد خرجوا فى النهاية من الحانة ••

خلا الباب لهم عندما انصرف « المرمطون » الضخم المسكين الى جمع النفايات وغسل الكئوس ••

ولكن نجيب محفوظ تركهم يخرجون وهم عاجزون عن فهم ما حدث لهم أولا وأخيرا ••

وبينما هم منصرفون وقد اتسع الباب لهم ، والرجل الصلد يمسح ويغسل وينفض ، ألقوا عليه نظرة غائمة تتساءل :

ـ متى وأين رأينا هذا الرجل ؟!

لم يتذكروه وليس بينهم وبين غارته على أوهامهم الا لحظات !

لم يحاول نجيب محفوظ أن يذكرهم به ، فليس لدى نجيب محفوظ دواء جاهز لعقول الشاربين ، ولا حل لمشكلاتهم مع ضباب كئوسهم ••

ولحظة التنوير ـ ان صح مرة أخرى هذا التعبير ـ ليست لحظة مبتذلة يقول فيها موعظته أو يبين مغزاه ثم يمضى ! .

فحتى بعض قراء القصة الذين لم يقرعوا كأسا بكأس فى خمارة القط الاسود ، قد يتساءلون فى نهاية القصة كما تساءل الشاربون :

ـ متى وأين رأينا هذا الرجل ؟!

فقد تركت القصة قارئهـــا يتعب بعض التعب بحثا عن الحقيقة كما ترك اخوان الصفاء ، أو اخوان الضـــباب في خمارة القط الاسود عاجزين عن ادراك الحقيقة وهي ماثلة بين أيديهم ، بائسة مريضة ـ وان كانت عريضة شامخة ـ تفسل كئوسهم ، ، وتنفض عن الموائد بقايا ضبابهم ، ونفايات وعيهم

وهو في ذلك كله ـ على قسوته ـ لم يتخل عن « واجب التنوير » .. ولكن التنوير في يد الفنان لا يشتعل احتراقا كالتنوير في يد الخطيب المصقع ، ولا يقلل من قيمـة الماء عند الناس أنه لا يشعل فتائل المصابيح ، فان الماء يشـعل الحياة في الارض والسماء ! ..

هكذا كتب نجيب محفوظ جميع قصص مجموعته الرائعة « خمارة القط الاسود » .. وليست خمارة القط الاسود الا احدى هذه القصص .. وقد جاءت قصـــــة « شهر زاد » ختـــاما لهـذه المجمـــوعة ، فكانت مسك الختام .. كما يقال .. .. وكانت حقـــا قصة شـهر زاد العصرية البائسة المطلقة المتدهورة الباحثة عن شهريار بأي ثمن !

وتتمثل آخر صيحات فن القصـــة القصيرة عند نجيب محفوظ في عدد من القصص المتفردة بعمقها واتساق شكلها ومضمونها في هذه المجموعة الجديدة : كقصة « المسـطول والقنبلة » و « زيارة » و « صـــوت مزعج » و « رحلة » و « الصدي » و « كلمة غير مفهومة » ..

في هذه القصص وغيرها تنفذ من قلمه الى الحيـــاة والكون نظرة شاملة ، هي علامة فنه المسجلة ، وطالما تحدثنا عنها ، فلا غرابة فيها من هذه الناحية ، ولكنها تتجـدد مع

كل انسان جديد تنثال أيامه على أوراق نجيب محفوظ ، فلا يتركه حتى يرسم علاقته بالمجتمع والطبيعة وما وراء الطبيعة ، ويقف به خلال ذلك وقفات روحية وحسية وذهنية في كل مجال يخطر على البال ..

لهذا تبدو شخصيات قصصه عارمة ، لانها تسعى بين الارض والسماء ، وتمس الحياة جسدا وروحا ، وهذه مأثرة له بين كتاب القصة القصيرة الذين اعتاد بعضهم الجرى وراء نماذج بشرية باهتة كأنها صور التليفزيون ، قد فسد فيه مفتاح درجة الوضوح ! ..

صحيح أن بعض أبطال قصص نجيب محفوظ يظهرون من هزالهم كأنهم موتى أكل الدهر لحمهم وشحمهم فلا يستطيعون أن يمسوا الحياة الا بأطراف هياكلهم العظمية . أو يظهرون معطرين مترفين غارقين في الجنس ، عارين من السجايا التى ناضل الانسان مائة ألف سنة حتى اكتسبها وميز بها نفسه عن وحش الغابة ..

الا أنه حين يقدم الينا هذه النماذج ، يستكمل ما وراء ظواهرها فهو يرى كل ظاهر باطنا لا يسهل أن تراه كل العيون .. ثم يتعقب ما رأى حتى يلج مكامن النفس وكهوفها السرية .. فتبدو بعض قصصه كأنها لوحات مرسومة للعقل الباطن من داخله ، أو تهويمات غيبية من وراء الواقع !

ولكن من يعرفون علاقة فن الكتابة ببواعث النفس الفنانة يقرون بأن الناس في قصص نجيب محفوظ هم الناس بما فيهم من اضطرام اللحم والدم والنفس .. يراهم في الحدود الواسعة الشديدة التعقيد ، المتعلقة بالحياة والكون .. وبالدهر كله من أزله الى أبده .. ولو

أراد نجيب محفوظ أن يريحنا لارانا الناس فى حدود ملابسهم الصوفية أو الحريرية فقط .

لكنه لا يصور أفراحا لا وجود لها فى قلوب أبطال قصصه ، إلتزاما بالتعبير عن الفرح فقط .. ولا يزيف العلاقة بين الافراد والانظمة الاجتماعية ، ولا العلاقة بين الوطن والعالم من حوله .. وهو لا يفتأ يبحث عن حل لمأساة الانسان فى عصرنا بعد خمسة آلاف سنة من البناء الحضارى ، والقنبلة الذرية تهدد ما بناه أسلافه وما بنته يداه .. وتلك رسالة الفن الانسانى الصادق ..

مظلة نجيب محفوظ

الموتى ثائرون ، وأشباه الموتى ، والنـــائمون والحالمون والمسطولون ، واللامبالون والاذكياء والبلهاء ، والصادقون والكاذبون : الجميع ثائرون على أنفسهم ، ســـاخطون على حياتهم ، متخاصمون مع أرواحهـم وابدانهم ، يريدون أن يحرروها أو يحرقوها .. هكذا ترى أشـــكالهم والوانهم وصورهم وسحنهم المتجهمة المقلوبة النابضة بالحياة والموت معا ، وهكذا تلتقى بهم « تحت المظلة » .. مجموعة القصص الجديدة ، وأحدث صيحات الـــكاتب الفنان الكبير نجيب محفوظ ، وأقوى مغامراته الفلسفية الشـــاعرية ، المعقولة واللامعقولة ، فى مجاهل النفس البشرية ، وظـــلام الحياة والمجتمع والكون الفسيح بأرضه وســـمائه ، وما يمتـد ويضطرب بينهما من زمان ومكان وانسان أو حيوان (١) .

نجيب محفوظ يسمى هذه الروائع التى يكتبهـا « أدب موظفين » .. كما قال فى بعض أحاديثه الصحفية ! ..

ترى كيف كان نجيب محفـــوظ يكتب ، لو لم تسر به الحياة ثلاثين عاما أو أكثر فى طريق أدب الموظفين ؟! ..

وما أدب الموظفين الذى تحدث عنه نجيب محفوظ ؟ .. أليس هو أدب صفوة أدبائنا الآن وقبـــل الان ؟! .. وفى النطاق الادبى للوظيفة كتب كل منهم أو زعم أنه كتب ..

(١) انعكست فى هذه القصـــة احوال البلاد بعـد هزيمة ١٩٦٧ .

ومن كان خارج هذا النطاق حقا وفعلا وصدقا فليرم أدب الموظفين بحجر أو قنبلة يدوية ! ..

فى مجتمع الاربعينات وما قبـــل ذلك كان الموظف لا يكتب فى الصحف الا أدبا فقط .. السياسة محرمة عليه عملا وقولا وكتابة .. الآن ، يـكتب الموظف فى كل شيء ما دامت الكتابة وظيفته ، ويكتب أيضا اذا لم تكن وظيفته الكتابة ، فالجميع يكتبـــون ، والادباء كثيرون ، ولا شيء يمنع الموظف أن يكتب قصة أو مسرحية أو قصيدة أو خطابا مفتــــوحا ، ولا شيء كذلك يمنعه أن يقبض ثمن ما يكتب قروشا أو ملاليم ..

وعندما بدأ نجيب محفوظ يكتب قبل ثلاثين عاما ، كان موظفا صغيرا فى احدى الوزارات ، ولبث يكتب حتى أصبح موظفا كبيرا فى وزارة اخرى ، فأدبه دائما كان أدبا مؤدبا : أدب موظف صغير ، ثم أدب موظف كبير ، ولكن أدبه المؤدب كان فى جميع مراحله أدبا ثاقبا ناقدا حارا ، لا يتملق ولا ينافق ولا يمهد لصاحبه طريق الانتهاز والانتهاب .. كان نجيب محفوظ وما زال يقول فى الخمر ما قاله مالك ، ولكن بأسلوب شارب الخمر ، أو ساقى الخمر ، أو المتفـرج على الخمر وسقاتها وشاربيها ! ..

هكذا ، حتى بلغ نجيب محفوظ فى ســـــياحته الادبية ورحلته الفــــكرية الكبيرة مظلة صغيرة وقف تحتهـا مع الواقفين فى انتظار الاتوبيس أو الباص أو « الحافلة » بلغة المجمع اللغوى !

يختلط العقل والجنـــون والواقع والحـــلم والمنظر السينمائى والمنظر السحرى أمام عيـــون الواقفين « تحت

المظلة » .. فالحادثة التى يشاهدونها لا يتسع لها العقل وحده ، ولا الجنون وحده ، ولا يستوعبها الواقع وحده ولا المنظر السينمائى أو السحرى وحده ! ..

حادثة قتل مع حادثة سرقة مع حادثة فاضحة ، أو فعل علنى فاضح لرجل وامرأة عاريين فى الطريق أمام عيون الرجال والنساء ، وانتهاك لحرمة الموتى وحرمة القبور ، وجرائم متنوعة بين الفتك والهتك ، وهى جرائم كثيرة غزيرة ترش أسفلت الشارع الاسود كما ترشه السحب بالامطار الغاضبة ..

والحقيقة فى هذا الزحام الجنونى من الحادثات الجسام والجرائم الشنعاء ، لا يتفق عليها ثلاثة ، ولا يتفق عليها اثنان ، ولا يتفق عليها واحد فقط بينه وبين نفسه ، كانما رفعها الله من الارض وأودعها خزانة فى السماء مغلقة باقفال ضخمة كالجبال ، يحيط بها حرس شديد من الملائكة يرمون من يتطلع اليها أو يدنو منها بالشهب الحارقة !

الارض أديم أغبر كاذب ، والحقيقة مرفوعة الى السماء ، او مختفية فى مكان ما من الفضاء اللانهائى ، وقد حجبها غبار هذا الحلم الفظيع ، أو سواد هذا المنظر السينمائى المرعب الذى لم يخطر على بال هتشكوك ، ولا على بال حسن الامام ! ..

وكل ما يتتابع أمام عيون الواقفين « تحت المظلة » يملأ القلب بلهيب النجوم البعيدة الملتهبة فى فضاء الكون ، ويملأ العقل بشهب الملائكة المنقضة على رءوس الشياطين ، ويدفن وجدان الانسان واحساسه فى أعماق البراكين المصهورة بجوف الارض ! ..

والقصة قصة لص سارق لا يمسـك به الشرطي ، وفي الطريق تتصادم سيارتان وتشتعل فيهما النيران ولا أحد يهرع نحو الحادثة ·· « ولمح الواقفون تحت المظلة آدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شـــديد من تحت احـــدى السيارتين ملطخا بالدم · حاول النهوض ولكنه سقط على وجهه سقطة نهائية ·· واللص راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا ·· رمى بملابسه فوق حطام السيارتين ·· دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى · تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص في رشاقة احترافية ، واذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات ايقـــاعية ·· ان لم يـــكن منظرا تصويريا فهو الجنون » !··

ثم يدخل القصة الرهيبة رجل وامرأة « سارا متشابكي الذراعين · وقفا عند السيارتين المهشمتين · تبادلا كلمة · أخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تمـــاما تحت المطر ·· استلقت المرأة على الارض طارحة رأسها فوق جثة القتيـل المنكفيء على وجهه · ركع الرجل الى جانبهـــا · بدأ غزل بالايدى والشفاه ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمـارس الحب ·· وتواصل الرقص والتصـــفيق وانهمار المطر ·· فضيحة ·· ان لم يكن تصويرا فهو فضيحة ، وان لم يكن حقيقة فهو جنون »

.. وعندما يبلغ القارىء نهاية هذه الاقصـــوصة الرهيبة ، يحمد الله على أنها كانت مجرد كلام مكتـوب على الورق ، ولكنه يجد نفسه داخل القصة ، كأنه سطر من سطورها ، لا يستطيع أن يفك منهـــا يديه ورجليه وعقله وكيـــانه بأجمعه ·· لا يمكن أن تكون القصة مجرد كلام على الورق !

وهذه التجربة سيكابدها القارىء مع كل الاقاصـــيص

والمسرحيات القصيرة أو الحواريات القصصية فى مجموعة « تحت المظلة » .. كل منها حلم يبدأ بكلمة وينتهى بكلمة، ولكن القارىء يظل حبيسا بين الكلمتين ! ..

وفى حدود « أدب الموظفين » وقعت هذه الاهوال تحت المظلة ، وتحت غيرها من الحواجز والستائر والجدران والظلمات وأجواز الفضاء الشاسعة التى ارتادها نجيب محفوظ فى هذه المجموعة القصصية الجديدة الفريدة فوثب بفن الاقصوصة أو بفن القصة القصيرة المصرية وثبة خطيرة باهرة .

واذا كان « أدب الموظفين » يبنى مثل هذا الصرح الادبى والفنى والفكرى ، فمن مزايا أدب نجيب محفوظ اذن أنه أدب موظفين .. وليت كل من يزعم انه خارج دائرة أدب الموظفين ، يدخل فيها .. ويكتب ! ..

نجيب محفوظ
والانسان والعسل

فى مذكراته القصصية البديعة التى يسميها « المرايا » والتى نشرها فى مجلة الاذاعة ، يومض أديب مصر نجيب محفوظ بلفتات فكرية وروحية يكشف لمحها الخاطف مساحات شاسعة من معاناته الفكرية والروحية بعد مسيرة بضعة وخمسين عاما فى حياته المديدة وفى حياة بلاده وجيله وعصره الواجفة بزلازل الفكر والروح !

قد لا تكون لفتاته الوامضة هذه جديدة على قلمه ، فهى من نفس النبع الذى تدفق بالفيض المتواصل السخى ، ولكن مذكراته القصصية أو مراياه الادبية التى يكتبها الان وقد اجتمعت له الحكمة من أطرافها ، تقدم هذه اللفتات كما يقدم الفنان المبتكر آخر صيحات فنه فتبدو جديدة تماما ، كأنها أشعة نجم جديد ولدته السماء ليلا والناس نيام ! •

يقول فى مذكراته : «لاتغال فى المثالية والا مت تقززا» •

ويقول : « ترديت كثيرا فريسة لكآبة روحية معتمة كدت ارفض تحت وطأتها التجربة الانسانية كلها » ••

ههنا رجل حكيم متقزز من الغابة البشرية التى تحمل فى أخريات القرن العشرين ملامح القرون الوحشية الاولى ، ولكنه يرى أن التقزز عقوبة المغالاة فى المثالية ، لان المثالية اغضاء عن الواقع أو جهل به أو استعلاء عليه ••

ومادام الحل لا يمكن استيلاده من التأمل المجـــرد الخيالى ، ولا من الرفض الفردى العقيم ، فان المثـــالية اذن تفضى الى التقزز ، والتقزز يفضى الى الموت قهرا وكمدا •• ولا عزاء ! ••

تلتقي هذه المثالية الاخلاقية بالمثالية الفلسفية والفكرية التي تقف من الانسان والمجتمع والكون موقفا غير واقعي • والحقيقة أن المثالية الاخلاقية التى تثمر التقزز السلبى هى فرع من المثالية الفلسفيةة ، كلتاهما فى عصرنا طريق الكمد والقهر ورفض الحياة ، بل رفض التجربة الانسانية كلها ، أى رفض وجود الانسان وصيرورته أصلا ••

ولكن التقزز السلبى يصطدم فى شـــخصيات نجيب محفوظ « بسجايا قيمة جديرة باســترداد الثقة » •• أى بصفات أصيلة تشجع الانسان على الثقة بنفســـه وببنى جنسه وبالحياة والمجتمع ••

وفى المجموعة القصصية الجديدة « شهر العسل » التى صدرت أخيرا لنجيب محفوظ ، تتلاقى شخصيات متقززة تكاد « تحت وطأة الكآبة الروحية ترفض التجربة الانسانية كلها » •• بل تكاد ترفض التجربة الكونية كلها وتطالب بنواميس جديدة ، لان النواميس الازلية صراع فى صراع ، ولا شيء يتطور ويزدهر الا بالصراع والقتال ، فلماذا تتطور الكائنات وترقي ، ولا تتطور النواميس وترقى لتصبح أقل ضراوة وأكثر رحمة ؟! ••

شخصيات القصص السبع الرائعة فى مجموعة « شــهر العسل » تتقزز على هذا النحو ، وتمارس الحياة فى أدنى مستوياتها الجسدية كما تمارسها تفكيرا فى الكون والمثل.

الاعلى ، وتتداخل سجاياها وحيواتها وتفترق كما تتداخل عناصر الطبيعة وتفترق فى الكون الفسيح ، ..

وفى قصة «شهر العسل» التى تتصدر قصص المجموعة ، تعلو الثقة على التقزز وتكسب نهاية المعركة .. ينتصر الحق فى ملحمة أسطورية كان يبدو أنه مهزوم فيها لا محالة ، وينهض الانسان بذكائه وعمله وسجاياه فوق الانقاض ليبدأ من جديد ..

ولا تخلو بقية قصص المجموعة الرائعة من نصر يحققه عمل الانسان أو ذكاء الانسان ، ولكنه يخوض الى هذا النصر بحرا من التقزز والكآبة الروحية والتفكير الباعث للقهر والكمد والاحتجاج على التجربة الانسانية كلها ..

ان نجيب محفوظ ، بطريقته الفذة هذه ، يبشر بالثقة والامل وبلوغ الحقيقة ! .. يجوب أعماق الحياة والمجتمع والكون قبل أن يأتى بالبشرى من مكانها البعيد ، أو مكانها العجيب ! ..

وهدفه أن يساعدنا على ألا نموت تقززا ، وعلى أن نواجه المجتمع والكون بالذكاء المولع بالحقيقة ، الباحث عن السجايا الانسانية القيمة الجديرة باسترداد الثقة ، وبنائها من جديد ، ثم مواصلة الحياة كيفما كانت وكيفما تكون ! ..

حواريات نجيب محفوظ

نجيب محفوظ أديب مصر ، وقد ملأ الدنيا وشغل الناس كما وصف النقاد فيما مضى أبا الطيب المتنبى ، يطلع علينا بفتنة أدبية جديدة ، أو غواية فنيـــة جديدة ، هى مجموعة قصصه القصيرة الحوارية التى سماها « حكاية بلا بداية ولا نهاية » •• تيمنا باسم القصة الاولى من هذه المجموعة الثمينة ذات الحواريات القصصية الخمس •

بهذه المجموعة الجديدة يتخطى نجيب محفوظ أســلوب مجموعته «تحت المظلة » التى صدرت منذ عامين تحمل عناء الرؤية فى الظلام الحالك بعد هزيمة ٥ يونيو الفـــادحة • فالحوار النابض الزاخر فى المجمــوعة الجديدة يفتح بابا للوضوح أغلقته العبارات التلغـــرافية العصبية ، والافكار الكسيرة الغائمة فى المجموعة السابقة ••

وعسى الا يفتتن بعض القصصين الشـــبان بفن الحوار الذى طلع به عليهم نجيب محفوظ ، فان هذا الحـــوار فن خاص ، وافتتانهم به ربما تطيش معه حكمتهم الغضة ، فلا نقرأ فى قصصهم منذ اليـــوم الا حوارا ، كأنهم يتبعـون الموضة الجديدة فى القصة المصرية كل عام* • وموضة هذا العام هى الحواريات البسيطة القصيرة فوق الركبة بخمس بوصات ، كل بوصة تساوى قصة ! ••

وقد نراهم يفعلون ذلك برغم ان بعض الادباء الشبان حاولوا فى الزمن الاخير أن يقولوا لانفسهم ان مرحلة نجيب محفوظ قد انتهت كما انتهت من قبل مراحل أدباء كثيرين • ولكن هؤلاء الشبان لا يصدقون ما يقولونه لانفسهم ، فالحقيقة التي يلمسونها بأيديهم كما يلمسها كل ذى يدين أن نجيب محفوظ يشتمل على مراحل تتجدد بلا انقطاع لانه يعيش فى عصره يوما يوما ، ويمشى معه خطوة خطوة وقد يسبقه فى الخطو •• وهذا ما يعجز عنه كثير من الشبان وان أكثروا من الكلام ! ••

واذا كان الجديد يحل دائما محل القديم ، فان الجديد هو الصيرورة الدائمة • وربما نظرنا الى بعض الناس فادهشنا أنهم من القدماء وهم جدد الاعمار ، لانهم يتصورون ان الجديد هو الثبات الدائم على هذا الجديد الوحيد •

لا نقصد أن نجيب محفوظ « أديب خالد » أو « أديب لكل العصور » فلا خلود لشىء ، ولا شىء لكل العصور • ولكن نقصد ان هذا الاديب الكبير بتكوينه الفكرى والوجدانى والفنى يتجدد دائما ، ويصير من مرحلة الى مرحلة ، ويتلقى وحى الجديد لا وحى القديم ، ويقول لابناء عصره أحدث ما يقال ••

وأسلوبه الجديد فى القصة ــ أسلوب الحوار ــ يشبه أن يكون محاولة منه للاستماع الى الناس الذين لا يكثر بيننا من يستمع اليهم ، وقد وجد فى الحوار أسلوبا للتعبير يناسب هذا المقام •

وليس الحوار بالفن الجديد ، ولكن نجيب محفوظ يضعه فى منزلة الفن الجديد • تتصاعد الحوادث الجسام

وتتطور وتنمو الابعاد المادية والنفسية والاجتماعية لابطالها وصعاليكها من خلال حوار متين الاسر تكاد الشخصية فيه تخلق نفسها بلا تدخل من الكاتب ٠

نجيب محفوظ لا يريد ان يكتب مسرحا مع ان حـــواره يستوفي شروط الحوار المسرحي بلا نقصـــــان ، بل ربما بزيادة كبيرة اذا قيس الى ما نسمعه في كثير من المسرحيات ذات الشهرة الفنية ٠ ومن مزاياه التي لا خفاء بها أنه برغم لغته الفصيحة ، يصدر عن الشـــــخصية التي تتحدث به صدورا طبيعيا ، فلا يشك الســـــامع أو القارىء أن هذه الشخصية تخوض حوارا حقيقيا ٠٠

وفي ثنايا هذا الحوار الحي المتدفق ، نتابع بوضوح تام تطور العمل من نقطته الاولى الى ذروته الاخيـرة ٠ ولو كان الحوار خاملا أو ذهنيا جامدا أو مفتعلا بأي شــكل ، لخفي عنا ما يعتمل في ثناياه ، ولما تجسمت أمام انظارنا صـورة الحركة المسرحية ونحن نقرؤه أو نسمعه بعيدا عن المسرح وبلا ممثلين ٠٠

يقول نجيب محفوظ انه بهذا الاسلوب لا يصنع مسرحا، ولعله لا يصنع قصة كذلك ٠ ولكنه على أية حال يزداد قربا من القارىء ، ويحاول ان يشـــــترك في انقـاذه من اللغو والثرثرة والخطابة ، بعد ان شبع منها في الاعمال الادبيــة والفنية ٠٠ وغيرها ! ٠٠

حكاية حارة نجيب محفوظ

تبدو بعض « حكايات حارتنا » لنجيب محفوظ غاية فى السذاجة وكأنها حكايات اطفال ·· مثلا ·· الحكاية رقم « ٦٦ » ـ وانقلها اليك كلها ـ تقول :

« وراء قضبان نافذة بدروم ، يلوح وجه صبى صغير ، اذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

ـ يا عم ··

فيقف العابر ويسأله عما يريد فيقول :

ـ أريد أن اخرج

ـ وماذا يمنعك ؟

ـ باب الحجرة مغلق !

ـ الا يوجد أحد معك ؟!

ـ كلا ··

ـ أين امك ؟

ـ اغلقت الباب وذهبت

وأبوك ؟

ـ سافر من زمان

ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيبتسم اليه مشجعا ، ويذهب ، ويلوح وجه الصبى الصغير وراء القضبان وهو يتطلع بشوق الى الناس والطريق » ..

انتهت الحكاية ..

بساطتها لا تحتاج الى كلام .. اعنى سذاجتها .. ولكنك تجد نفسك أمام لغز محير عندما تتأمل فى حكاية هذا الصبى الذى يعيش فى قبوه بلا أب ولا أم .. كلاهما سافر من زمان أو أغلق الباب وذهب من زمان .. أيضا . فالصبى حبيس هنا بلا طعام ولا شراب ولا شيء على الاطلاق يبقيه حيا الى التطلع الى الناس الاحياء وتبادل كلمات مع بعضهم ! ..

اذا تأملت « الحدوتة » القصيرة الساذجة من هذه الزاوية لم تجدها قصيرة ولا ساذجة وهكذا ما تضمه مجموعة « حكايات حارتنا » التى اصدرها اخيرا كاتب مصر الكبير نجيب محفوظ .. انها « فتافيت » عجيبة ، لا أقول انها بلغت كلها حد الروعة أو حدا يثير الاعجاب ولكن المؤكد ان لها النفاح الفنى نفسه الذى يتضوع دائما فيما يكتبه هذا الكاتب الفنان أو السحر الفنى العجيب ..

ان نجيب محفوظ هو ابن الحارة المصرية .. والحارات درجات ، حارات ذات مستوى واخرى منحدرة الى نهاية سفح الدنيا ، ولكن نجيب محفوظ ـ ابن الحارة ذات المستوى ـ عاش فى قمة الحارة وفى سفحها وفى اقبائها ومجاهلها ، فأصبح « عالميا » فى انتسابه الى الحارة المصرية، كما يوصف بعض الناس بأنهم مواطنون عالميون وان انتسبوا بميلادهم ونشأتهم وارومتهم الى الوطن بعينه ..

و « العالمية » هى المذهب الاساسى لنجيب محفوظ فى

الفكر والفن • ومعناها الذى اقصده ان نجيب محفوظ ينظر في كل ما يكتب الى الانسان والحيـــاة والمجتمع والدنيا والمجموعة الشمسية والمجرة والـــكون بأجمعه ، ولو كان ما يكتبه بضعة اسطر عن طفل يخاطب المارة فى الشـارع من نافذة بدروم ! ••

طبعا ، لا يمكن أن تستوعب مثل هذه الاســطر من فن هذا الفنان وفكره ، ما تستوعبه رواية مثل «الطريق » أو « الشحاذ » أو « ثرثرة فوق النيل » أو قصـــص قصيرة كاملة الاوصاف كقصص «خمارة القط الاسود » و « شـــهر عسل » و « الجريمة » •• مثلا •

ولكن المهم أن مذهبه فى نســـج فنـــه لا تختلف مادته الذهبية لا فى الادوار ولا فى الطقـــــاطيق •• انه وطنى الرؤية ، عالمى الافق ، كونى التطلعات والاشواق •• سواء كتب رواية من ألف صفحة ، أو حكاية من عشرة سطور •

ولهذا سيعيش الكثير مما كتبه نجيب محفوظ أجيـالا كثيرة ، وان كان هو ـ على رغم ما وصفنا من عالمية وكونية ـ لا يؤمن ببقاء شىء بعد أوانه ، ولا بامتـــــداد فكر بعد انقضاء الجيل الذى انتجه •• ولا يدهشنى أن أتصـــور الناس بعد عدة أجيال اخرى ، وقد انهمـــكوا فى مطالعة « حكايات حارتنا » •• هذه المجموعة الساذجة الذكية التى تنطبع فيها صورة صادقة من صور مصر لا يبليها الزمان •

بقى ان يسمح لى من اخرجوا بعض هذه الحـــكايات الجميلة على شاشة التليفزيون فى رمضان الماضى ان أقول انهم اساءوا الى الكثير منها نعم هى حكايات تبدو ســاذجة سهلة بسيطة ، لكنها ليست كذلك الا على الورق • أما عند تحريكها دراميا فهى شىء صعب حقا ••

وقد أجادوا اخراج بعضها عندما فطنوا الى هذه الحقيقة، ولم يجدوا عندما غفلوا عنها ٠ ولا انسى « هيـافه » احراج الحكاية رقم ٥٤ عن الفتوة عبـاس الجحش ، التى كان في الامكان ان تكون ـ لو تأملوها واستوعبوها ـ أحسن مما كان منهم بكثير ٠٠ دعك من تحول الحكايات في أخريات رمضان الى ما تحولت اليه من تدهور فني غير معقول ٠٠

وانما اذكر الان ما وقع من هلهلة تليفزيونية لبعض هذه الحكايات ،لان اغلبيتها لم تظهر على الشاشة الصغيرة ولا الكبيرة بعد ، وان فيها لمادة درامية تصلح لهما ، فان فكر أحد من الناس ان يأخذ هذه المادة فليرفق بها كل الرفق ، وليكن أمينا فيما ينقله عن الورق الى الشـــاشة ٠ فليس استخراج الفن من هذه الحكايات الساذجة عملا ساذجا ٠٠ فان مؤلفها الاريب هو ممن عناهم أبو الطيب المتنبى بقوله :

الالمعي الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سـمعا

وليس معنى هذا البيت هو ما أريد ان أقوله بالضبط ، ولكن لم يخطر على بالى ساعة كتابتى هذه الســـطور بيت أقرب من هذا البيت الى المعنى الذى أريــده ٠٠ وكـلال الذاكرة غير مشكور ، ولكنه ـ فيما أرجو ـ مغفور مجبور !

نجيب محفوظ
وهضبة الهرم

عندما تصفحت المجموعة القصـــــصية الجديدة لنجيب محفوظ : « الحب فوق هضبة الهـــرم » وكان أكثرها منشورا في الصحف خلال السنوات القلائل الماضية ٠٠ تذكرت حديثا صحفيا لنجيب محفوظ نشر منذ أسابيع ، يقال فيه على لسانه انه توقف عن الكتابة مؤقتا ريثما يجد موضوعات للكتابة ، تعيده اليها ، أو تجدد له عزيمة فيها

فنجيب محفوظ يشبه عنوان مجمـــوعته القصـــصية الجديدة ٠٠ يشبه الحب فوق هضبة الهرم ، مع الفـارق طبعا في القياس والمقارنة ٠٠ ومع الاعتذار أيضا ! ٠٠

ان نجيب محفوظ يعيش منذ بضعة وعشرين عاما فوق هضبة هرم الرواية والقصـــــة فى مصر والبـــلاد العربية الشقيقة ٠٠ وهى هضبة فكرية فنية وجدانية وعرة ، وان كانت تبدو من بعيد خضراء شـــجراء ، تجرى من تحتهـا الانهار ! ٠٠

وهو يكتب عن الحاضر والماضى والمســـتقبل ٠٠ يبشر وينذر ويؤرخ ويصنع أدبا وفنا لنا ولمن يجيء بعدنا ، وان كان يصرح دائما بانه يعتقد ـ فلسفيا ـ أن المســتقبل لن يبالى بشيء يخصنا نحن الحاضرين ، فسنكون لديه عندئذ غائبين ، وسوف تكنس الايام والليالى فى عصفها كل شيء

كما تكنس حفنة تراب •• وباخرة الدهر دائما تسير ••
أعنى طائرة الدهر ، بل صاروخه وسفينته الفضائية ! ••

وفى حديثنا هذا لا نحتاج ان نعود القهقرى الى ثلاثية نجيب محفوظ وما انطبع على صفحاتها من بدايات القرن العشرين فى مصر ••

يكفي أن نعود الى رواياته بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ثم نمضى معه الى يوم الناس هذا •• فنرى ان هذه الروايات تمثلت فيها مرحلتان • احداهما فى « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » و « الطريق » و « الشحاذ » و « ثرثرة فوق النيل » و « ميرامار » •

أما المرحلة الثانية ففي « المرايا » و « الحب تحت المطر » و « الكرنك » و « قلب الليل » و « حضرة المحترم » •• وعدد من المجموعات القصصية ، أحدثها مجموعة « الحب فوق هضبة الهرم » •

كانت روايتا « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » أول خطوة لنجيب محفوظ نحو ما استجد فى البلد بعد ٢٣ يوليو • مقتربا بنظرته الفنية الثاقبة من تيار الحياة اليومية والعامة •• الظاهرة والباطنة ، لمجموع قومنا فى هذه المرحلة التاريخية المضطربة البالغة الاثر فى الحاضر والاتى ••

والبطل فى هاتين الروايتين رجل أو شاب أو شابة أو امرأة من الطبقة المتوسطة الصغيرة المثقفة أو ما فوقها أو تحتها بقليل •• وقد لبث هذا البطل يخدم الفن الروائى لنجيب محفوظ خدمة جادة مخلصة مثمرة ، بلا انقطاع منذ ذلك الوقت حتى الان • وكانت بداية خدمته فى الحقيقة

سنة ١٩٤٥ حين صدرت رواية « القاهرة الجديدة » .. بل قبل ذلك بسنوات حين كتب نجيب محفوظ هذه الرواية الباكورة الفريدة ! ..

فى كل رواية يجىء بطل هذه الطبقة ذات الحساسية المفرطة ، واليقظة الفائقة لكل ما حولها من أشياء تتغير بسرعة أو ببطء ، أو تجمد ، أو تنقرض ، أو تتقلب بها الايام علوا وسفلا .. يجىء هذا البطل الامين لدوره ، فيرتدى مسوح الشخصية ، ويتقمص العمل الفنى والفكرى الذى أعده له نجيب محفوظ ..

ولنا أن نقول بعد طول متابعتنا هذا البطل القادم من الطبقه المتوسطة المثقفة أو غير المثقفة ، انه قد يكون قوى النظر الى الحياة ، قديرا فى ممارسة الدنيا ومكابدة حرب الناس من فوقه ومن تحته ، وعن يمينه وعن شماله ، وفى كل الظروف ! ..

انه بطل الازمان والتغيرات والنكسات والانتصارات الاجتماعية والسياسية والفكرية والدينية فى كل روايات نجيب محفوظ .. تراه فى «اللص والكلاب» وفى«السمان والخريف » .. وفى « الطريق » و « والشحاذ » .. و « ثرثرة فوق النيل » .. وتراه فى القصص القصيرة أيضا ..

وهو ينمو فى الرواية أو القصة مختلطا بالناس ، او منعزلا عنهم .. وهو يحيا فى الاحداث العامة حياة انفعال أو حياة نضال ، ويتطفل أحيانا او يتفرج على كبريات الحوادث .. وقد يتقدم الى معتركها فيكون له فيها عمل مؤثر ، أو عمل يقذفه الى مصير مخوف ! ..

والمصير العام للناس يؤثر فى المصير الخاص للبطل ، وأمام ناظريه تتجادل الاحوال والمصاير المختلفة ، ممسكا بعضها برقاب بعض ! ..

وعندما ظهرت أولى الروايات « الثورية » لنجيب محفوظ سنة ١٩٦١ كانت خالية تماما من الخطابة الحماسية والكلمات المنبرية الواسعة الانتشار أيامئذ فى الادب والفن انتشار عجز أو ابتذال أو افتعال .. وكان نجاح روايات نجيب محفوظ وسط تلك الضجة من سجع المنابر ، دليلا على أن القارىء المصرى يريد أدب التصفيق والزغاريد ، ولا أدب المدائح والمعلقات فوق أستار ٢٣ يوليو .

وفي مجموعته القصصية الجديدة التي صدرت أخيرا لا يتخلى نجيب محفوظ عن هذا النهج ، فتراه في كل قصة مندمجا مع الانسان والحياة والكون في نظرة أو فكرة شاملة قدر طاقة الانسان .. وتراه يفتح باب الحدث العابر فى حياة أبطاله لتدخل منه كبار المعضلات .. فالوشائج بين كبار الامور وصغارها بالغة القوة والجبروت، وان كانت فى دقتها بالغة الخفاء أحيانا ، بل فى أكثر الاحيان ! ..

وفي هذا العمل الفنى المتشعب المعقد ، يبدو نجيب محفوظ مصرى الوجه واليد واللسان ، شعبيا كل الشعبية، بمعناها فى الكتب ومعناها فى الشارع .. غير منحاز الى طبقة ، وان كان منحازا عن قهر الطبقات .. لا يدعو الى طريقة معينة في تنظيم المجتمع ، الا ما يصدر عنه من أفكار وكلمات عامة تلمح فيها الاشتراكية والديموقراطية والخيال والعلم والفن والفلسفة ، وتهاويل شتى من الالهام الرفيع ! ..

و « مجموعة الحب فوق هضبة الهـــرم » جاءت بعد مجموعات كتبها فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ الفادحة ، فكانت تلك المجموعات رموزا وغيوما ·· بعضها لا تفهمه غالبيــة القراء ، وأشهد أنى تضامنت مع هذه الغالبية عندما قرأت مجموعة « تحت المظلة » ··

ولكن بعض هذه المجموعات يحفل بروائع من الشـــعر الرمزى والقصص الرمزى معا ·· مثل مجموعة « خمــارة القط الاسود » ··· وهل ينسى أحد روعة القصة القصيرة التى تحمل هذا الاسم كما تحمله المجموعة كلها ؟! ··

والسؤال الان : هل هجر نجيب محفوظ فن الرمز بعد هاتين المجموعتين ؟! ··

لا أرى ذلك ·· وأظن الكثيرين لا يرونه ، فان مجموعاته ورواياته التى نشرت بعدهما ، لاتخلـــو من الرمز ، وقد تغلو فيه هنا أو هناك ·· وكيف يزعم امرؤ لا يلمح وميض الرمز فى هذه الاعمال جميعا · ما عدا « الكرنك » ! ··

ولكن شتان بين الرمز الذى يشبه التعمية وطمس المعالم كما رأينا فى مجموعة «تحت المظلة» ·· وبين الرمزالفنى الشاعرى فى مجموعاته الاخيرة ، فان بلاغة الرمز فيهـــا لا يبلغ شأوها الا الموهوبون الملهمون ، وهو يزيد القصــة وضوحا ويجعلها أكبر حجما وأوسع مســاحة وأدنى الى قلب القارىء وعقله معا ! ·· ان الرمز هنا كالوجه الجميل، يزيدك حسنا كلما زدته نظرا ، كأنه محبوبة الشاعر أبى نواس فى سالف الزمان ··

وهذا ما نجده فى مجموعة « الحب فوق هضبة الهرم » · فهل ينسى أحد المطربة « نور القمر » الجميلة المغردة التى

« تتـــالق بأبهة الانوثة الـــكاملة ، ولا تغنى الا الاغانى القديمة » •• وتغرد فى قلب الليل بلحن محمد عثمان فى دوره الشجى : « كادنى الهوى » ؟! ••

آه •• ثم آه •• ثم آه ـ كمـا كان يصرخ الدكتور زكى مبارك فى مقالاته قديما ـ من روعة رمز القصـــة وقصـة الرمز ، وعبقريتهما حين يلتقيان على قلم نجيب محفوظ فى حياة « نور القمر » ! ••

ان هذا الكاتب الكبير يرتفع فى هذه القصة بجناحيه ، ويخاطبنا من عل ، وهو انما يتحدث الينا نحن أهـل هذه الارض عما يضطرب فوق أرضنا ، لا عما يسبح فى أجواز الفضاء ! ••

وفى قصة « الحب فوق هضبة الهرم » يجـلس نجيب محفوظ القرفصاء ، كأنه الكاتب المصرى القـديم ، يكتب الحقائق مجردة عارية تتراقص فى حيـــاة أبناء الاشـــعة الاخيرة من شمس القرن العشرين فى عاصمة وادى النيل ، وفى الدنيا من حولها ••

ولسنا بصدد تلخيص قصة ولا نقدها ، انما نحاول وقد التقينا بهذا العطاء الجديد لكاتبنا الكبير ، أن نعرف كيف فتن الناس فتونا ، وكيف أخمل ـ ولا ذنب له ـ جميـع من جاءوا قبله ومن جاءوا بعده فى مجاله هذا الذى يصول فيه ويجول وقد ملأ الدنيا وشغل الناس ! ••

وقد يكون من الحق أن نجيب محفـوظ يبحث الان عن موضوع ، ولكن موضوع نجيب محفوظ يبحث عنه ايضا ، ويضع نفسه تحت سن قلمه ساعة الالهام ! ••

حضرة المحترم نجيب محفوظ

يحزفى نفس هذا الرجل المحترم الذى ناضل عشرات السنين ليظفر بمنصب مدير عام ، ان التعيين والترقى والاحالة الي المعاش ، والحب والزواج والطلاق ، وصراعات السياسة وشعاراتها ، تتعاقب تعاقب الليل والنهار ، وكل شيء يمضى فى سبيله دون مبالاة به ، وهو الرجل المحترم ، بل هو « حضرة المحترم » الذى بلغ رتبة « الحضرة » بالجهد الجهيد .

فى بداية البداية ، انفتح له باب غرفة مترامية لا نهالية ــ هكذا خيل اليه حين وقعت عليها عيناه لاول مرة ــ و « تراءت له دنيا من المعانى والمثيرات » فى هذه الحجرة المحدودة بجدرانها وسقفها وان كانت تبدو لا نهائية كالفضاء الاعلى امام ناظريه .

تلقى عثمان بيومى فى هذا الفضاء المترامى أول صدمة كهربائية فى أغوار نفسه ، لكنها صدمة ذات بهجة ، خفق لها قلبه جنونا بالحياة « فى ذروتها الجليلة المتسلطة » .
وفى حضرة ذلك الشخص الصنم المتاله الجالس على كرسى المدير العام ، احس عثمان بيومى الكاتب الجديد فى الارشيف ان نداء من اعماقه يدعوه للركوع ، بل يملؤه رغبة حارة فى التضحية بالحياة ذاتها فى سبيل كرسى المدير العام .

وبين هذا اللقاء الاول مع المدير العام فى قاعة كرسيه الفخيم ، وبين اللقاء الاخير مع موظفى المصلحة بعد عشرات السنين ، وقد اصبح كاتب الارشيف نفسه مديرا عاما ، غمرت النفس مياه السنين ، باغزر مما تغمرها مياه المحيطات والبحار والانهار كلها ، وبدا له مع خيط النهاية الاسود ، وهو يجود بانفاس الحياة ، ان كل شيء مثل كل شيء ، باطل الاباطيل ، الكل باطل ، حتى منصب المدير العام ، وكرسيه ، وقاعة كرسيه بابهتها الاسطورية .

سيقول النقاد والادباء ما يقولون عن رواية « حضرة المحترم » .. أحدث روايات نجيب محفوظ ، وسيتولى الكثيرون منهم اسقاط كلامهما على اشياء واشياء ، وسيشتد التأويل ويتشعب هنا وهناك ، ويحاكمونها الى قواعد فن الرواية ، كما يحاكمونها الى السياسة والفلسفة والدين وكل مافى جعبة النقاد والمثقفين الراسخين .

وان لهم لعذرا فى ذلك كله ، وقد كنا فى السابق نصنع ما يصنعون حين نقرأ رواية أو ديوان شعر أو أى عمل أدبى ، اما الآن - لحسن الحظ - فأصبح يكفينى ان أطالع فأطرب او لا أطرب ، فان طربت لم أسأل نفسى لم طربت ، وان فاتنى الطرب ، فاتنى ولم اخسر شيئا .

وموقفى من كتابة نجيب محفوظ الآن ، كموقفى من غناء أم كلثوم .

فى الماضى ، كان اول همى ان ارى كيف اختار الملحن المقام والايقاع وصنع الجمل الموسيقية ، وكيف تولت ام كلثوم اخراج اللحن بنبرات صوتها السماوية وما تحويه

من ذبذبات وعرب ـ بضم العين وفتح الراء ـ وتوشيات من وراء العقول .

اما الآن ، فاني اذهل عن كل أولئك ، ولا القى بالا الا الى الصوت مجتمعا بكل تأثيره فى الوجدان ، ولا اسأل نفسي عما وراء ذلك .

وذلك ما أصنعه الان حين اقرأ لنجيب محفوظ .

ليكتب فى الماضى ، أو فى الحاضر ، أو فى المستقبل ، أو فى الواقع ، أو فى الخرافة .

ليكتب عن شخصيات ايجابية محضة ، او سلبية تماما ، ولتكن روايته بأكملها عن رجل نذل ، أو عن رجل ذى ضمير ، فليس من حقى أن أكون مدير ادارة الادب ، وليس من حقى أن اطالبه برجال ونساء سعداء ، او أذكياء او مناضلين فى سبيل الوطن .. ان الادب الهام ونظرة الى الحياة والمجتمع والكون ، جملة أو تفصيلا .. ولم يخلق الله بعد موظف أدب ، على أية درجة من الدرجات ، ولو كانت درجة المدير العام التى بدت لحضرة المحترم عثمان بيومى عند اول نظرة مثل « موجة من نور باهر ، احتواها بقلبه وشد عليها بجنون » .. ثم بدت له فى آخر عهده بالدنيا كسراب فى صحراء .. وتذكر وقتها مصارع زملائه مديرى العموم السابقين بالسكتة والذبحة والانهيار العصبي والامعاء ، ورحلاتهم المتتابعة الى مراقد الصحراء ، واحدا اثر واحد ، تنثال على اجداثهم المراثى الركيكة والمراثى العصماء ، قد أصمهم عنها ما ورد عليهم من الراحة الكبرى بعد البلاء الجسيم !.

ماذا يريد نجيب محفوظ أن يقول فى رواية « حضرة المحترم » ؟!. هكذا يسألون .!

انه يقول الواقع .. يقول الحياة ، يدعو الى الصمود والبسالة فى مواجهة الواقع برغم جميع المثبطات ، بل يدعو الى الاستشهاد ، ولكن الحياة نفسها ليست جاربة يملكها الرجل تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه ، وانما هى صخرة لا تحركها أفاريد الانسان ولا دموعه ، وقد لا يحركها حتى عمله الدائب المستميت ، فيبدو كل شيء عندئذ مستحيلا ، وتبرز أمام عيون الناس بشاعة موقفهم فوق الارض ، وان أحاطت بهم الروعة والجمال والاشراق فى طبيعة الكون ، وفى طبيعة الانسان ذاته ..

أكان « حضرة المحترم » يخبط فى صحراء وجودية حارقة ، تمتد كالحرية أمام عينيه ، ولكنه فيها وحيد مهجور مخفق غائص فى رمال مأزقه ، قد تساوت لديه جميع الاعمال ، واصطدم أول أيامه فى الدنيا بآخر أيامه ؟!

قد يكون شيء من ذلك فى صفحات « حضرة المحترم » ولكن المجتمع على صفحاتها ايضا يخطو ببطء أو ببعض السرعة .. يتقدم على أية حال ، يتطور ويبحث عن الاحسن والأصح . والناس يتسلحون بالعلوم ويصطدمون بالمجتمع القديم ، بل بالطبيعة ذاتها ، مع أنهم يسقطون صرعى ، ويفشلون ، ويترنحون فوق أرض فكرية تشبه الرمال المتحركة .

كان عثمان بيومى حضرة المحترم ، يائسا ، يتيما ، فقيرا ، مخفقا ، فتصدى للاخفاق والفقر واليتم واليأس ، ونجح وبلغ مراده ، ولكن فى النفس الأخير .

واية فكرة انسانية يتضمنها الادب أو الفن لا يمكن ان تزيد على ذلك ، ولكن تهاويل علاجها قد تخفى وجهها ،

بل قد تبديه على غير حقيقته عند من لا يدقق .. ولو مررنا متعجلين على رواية « حضرة المحترم » لقلنا : يأس وجودى ، وعودة الى فكر قديم ، ورمز الى غير موجود فى عصرنا ، ولكن « حضرة المحترم » فى الحقيقة صفحات مجللة بالرمز والايحاء والغيب ، تمر بسرعة ودقة وجزالة ورقة ، وتقدم لك انسانا بين مجموعة من الناس عاشـوا واقعهم الارضى الصلد ، كأنهم من أبناء كوكب آخـر أو أشباح أساطير .

حرافيش نجيب محفوظ

انتظرت أن أسمع من هنا أو هناك ان رواية « الحرافيش » لنجيب محفوظ ستتحول الى فيلم سينمائى ، فلم أسمع شيئا من ذلك حتى الآن ، فالظاهر ان هذه الرواية التى سميت « ملحمة » تحير السينمائيين ، فلا يدرون من أى النواحى يأتونها ، كأنها بحر لا ساحل له . وليس هذا بتشبيه ، ولكنه الحقيقة ، فان الحرافيش بحر متلاطم من فنون « القول » لا تدرى ماذا تقول عنه ، فكيف والسينمائيون لن يقولوا عنه كلاما ، بل سيأخذون منه ــ ان فعلوا ــ حياة وموتا لأبطال أفلامهم ؟! .. ثم نجاحا او فشلا لشبابيك تذاكرهم ؟!

تشبه « ملحمة » الحرافيش مصب نهر طويل عميق غزير تمور ملء مجراه مياه تحدرت فيه من أعلى الجبل ، ومياه انحازت اليه من روافد فى الطريق ، ومياه هطلت عليه من السماء .

وتشبه هذه الملحمة « شعب السيل طغت فى ملتقاها » على حد قول شوقى فى بعض شعره ، لان الحرافيش ــ الرواية أو الملحمة ــ هى ملتقى هذا السيل الفنى الفكرى الادبى الفلسفى الذى لبث يهدر ويتدفق ويندفع الى الامام اربعين عاما ، هى فى عمر الكاتب الانسان ، كأربعين مليون عام فى عمر النهر منحدرا من منبعه الى مصبه ، مكتسبا تجارب الارض وما فوقها وهو يحفر مجراه ، سخيا بمائه على الارض اللينة التى تسمح له بالجرى

فيها ، غير بخيل على الارض الوعرة التى لا تسمح له بالنفاذ منها فيلتف حولها تاركا لها الرى والنماء ، مشتدا فى جريه بعد أن يتخطاها لا يلوى على شىء !.

ان الحرافيش ـ أحدث اعمال كاتب مصر الكبير نجيب محفوظ ـ هى كل ما رايناه فى دنيانا المصرية هذه على امتداد اعمارنا ، وهى ارهاص باشياء قد نراها ، فان لم نرها فانها هي سوف ترانا ، كما ترى آثار الذاهبين !.

ومن لم يقرأ نجيب محفوظ فى رواياته ومجموعات قصصه طوال أربعين عاما ، ثم قرأ الحرافيش ، فقد عرف من هو هذا الكاتب الكبير ، وان لم يشاهد منه الا هذه « اللقطة » الكبيرة وحدها من صورته الجليلة الشأن .

ان السينمائيين الذين يحجمون حتى الان عن الدلو من هذا البحر الزاخر الذى أنفجر من انامل الكاتب الكبير ، اعظم حجة فى هذه المرة منهم يوم ترددوا وانكمشوا حيال ثلاثيته الشهيرة ، فان الحرافيش ، هى امتداد الزمان فى النوع الانسانى كله ، لا مجرد امتداد انسان فرد فى مدى من الزمان يقصر او يطول .

فالحرافيش ليست قصة ثلاثة اجيال او أربعة ، وليس فيها ما يجترئه القارىء .

وهذا هو وجه صعوبتها الذى جعل اخبارها غير واردة حتى الآن ضمن اخبار « بورصة » السينما المصرية .

والحق ان الحرافيش تفتح بابا للتأمل والنظر فى عجز فنون السينما والفنون الحديثة المشابهة لها عن مجاراة فن الكتابة ، وهو الفن القديم الذى يتنبأ بعض هواة

التنبؤ بانقراضه فى يوم قريب وحلول فنون لصور المتحركة ـ الناطقة مكانه !.

ان فن الكتابة هو فن القول منقوشا على الورق ، وفن القول فى حقيقته وليد الجهد الخارق الذى بذله الانسان الاول للتعبير الواضح المحكوم بضوابط العقل ، المرتبط بدخائل النفس البشرية والمجتمع والكون !.

واذا كانت غاية تقدم التعبير البشرى ، أن يصمت البشر آخر الامر وتتكلم صورهم .. فما أعجبه من تقدم الى الوراء ، وليت « التكنولوجيا » تعفينا من عبقريتها فى هذا المجال !.

ثم اننى اسارع فاطمئن نجيب محفوظ باننى لا اشط بكلامى هذا عن ملحمة حرافيشه ، اهل الفن السينمائى ، وانما احذرهم فقط ، فليس الامر فيها رقصا ومظاهرات وحلقات ذكر ورفع العقيرة بكلام أعجمى ، وقتل هذا ، وخطف ذاك ، وتمنع هذه المرأة واستجابة المرأة الاخرى .

وليس الأمر فيها أيضا بحث امرىء عاجز أو قادر عن الحقيقة ، ولا اقامة نصب تذكارى للبطولة .. وانما هى فى جوهرها صيرورة هذا الناس كله ، بأرضه وسمائه ، من البداية ، بلا نهاية !.

وهذه الرواية وان كانت تتسع لكل التأويلات ، غير أنها ليست خيطا واضطرابا غيبيا أو « ميتافيزيقيا » مع ان فيها لمحات من خبط الغيب واضطراب الانسان حيال ما لا يدركه عقله ، وما يحار فيه جنانه الذى هو بديل عقله حين يعيبه الادراك .

ولعل قارىء هذه الملحمة يرى فيها وجه الحقيقة ،

يحجبه ستر شفيف من الحقيقة ذاتها ، أو يرى الحقيقة كائنا حيا يتحرك فيثير الدخان فى وجهه أو يثير الغبار ، فيضيعه هذا الغبار كما أضاع نجيب محفوظ بعض أبطال قصصه من قبل فى غبار الحقيقة ، أو على حد تعبير شاعر فارسى قديم : « كما ضاع أبو على فى غبار ناقة الحقيقة » .. ولو كان نص هذا الكلام مكتوبا عندى بالفارسية لسجلته هنا ، اضافة الى ما سجله نجيب محفوظ من الشعر باللغة الفارسية فى ملحمة الحرافيش الرائعة .

ثم انى لا أجد ما أقوله الا أن الحرافيش هى من نفس ذلك النبع المتدفق الذى يجرى بالزيادة دائما ، من فكر نجيب محفوظ المتجددة الحيوية ، ووجدانه وفنه وبيانه ، ففيها مذاق ماء هذا النبع ، وفيها عناصره كلها ، وفيها ما فى كل كتاباته من تعلق الحقيقة الانسانية بالمجتمع والكون كله ، وبالتاريخ المعاصر والغابر ، وبالمستقبل والحاضر ، ربما يسع الانسان الفرد ، ويسع الكون اللانهائى !

ان الحرافيش عقل ووجدان ، وذكاء وحب للخير ، وسخرية وجمال ، ومثل أعلى ، وطين لزج ، وسماد من زبرجد ، وأرض من خير وشر وموت وحياة ! ..

وحسبك أن يلقاك الكاتب العظيم بهذا التكوين الفذ من عمله ، فانه يلقاك بشطر عظيم من حياته وحياة الناس .. وحياتك ! ..

قهوة نجيب محفوظ

كتب نجيب محفوظ روايته الجديدة « الكرنك » فى سنة ١٩٧٠ واتمها سنة ١٩٧١ ، ونشرها سنة ١٩٧٤ بعد ان توافر ما لم يكن متـــاحا من حرية التعبير والنشر فى الموضوع الذى تطرقه هذه الرواية الاولى من نوعها فى الادب المصرى الحديث .

والكرنك قهوة أو مقهى فى حى شعبى من أحياء القاهرة .. صاحبته راقصة متقاعدة ، وزبائنه مجموعة من لشبان والشـــابات والــرجال والـكهول والشيوخ أصـــحاب المعاشات .

وعند رواد المقهي من الشباب .. « يبدأ التاريخ بالثورة مخلفا وراءه جاهلية مرذولة غامضة » .. كما تقول الرواية .. فهؤلاء الشباب يبدأ تاريخهم وتاريخ بلادهم بما حدث فى يوليو سنة ١٩٥٢ .

وهؤلاء الشباب كما تقول الرواية أيضا هم أبناء الثورة « الحقيقيون .. ولولاها لتشرد أكثرهم فى الأزقة والحوارى .. قد تند عنهم أصوات معارضة ولكنها لا تلبث أن تضيع فى الهدير الشامل » .

وذات يوم خلت مقاعد الشباب فى المقهي .. وقالت قرنفلة الراقصة القديمة صاحبة المقهى :

ـ لم يجيء أحد منهم .. ماذا جري ؟!

ومضت أيام طويلة ثم عادت الوجوه الشابة الغائبة : « زينب دياب واسماعيل الشيخ وحلمى حمادة وبضعة نفر آخرين ، اما البقية فلم نر لها أثرا بعد ذلك » .

وهتفت زينب دياب :

ـ سالمة يا سلامة .. رحنا وجينا بالسلامة !.

وتردد فى المقهى لأول مرة اسم « خالد صفوان » .. « ولكن من هو خالد صفوان ؟.. محقق ؟! مدير سجن ؟!» وكان اسمه يتردد بين المعاناة والذهول .. وقالت قرنفلة :

ـ الاولاد عانوا كثيرا ..

ولكن الاولاد العائدين لا يتكلمون « نحن فى زمن القوى المجهولة ، وجواسيس الهواء ، وأشباح النهار ، وجعلت أتخيل وأتذكر .. تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وملاحم العذاب ومعارك الغابات » .

وسارت الحياة فى المقهى بأصحابها زمنا .. ثم للمرة الثانية اختفى الشبان : « وقع المقدور مفاجأة وبلا سابق انذار كما حدث فى المرة الاولى » !.

وقال أحد الكهول الجالسين فى المقهى بعد ان قطع ما كان فيه من حديث عن أدوية القلب :

ـ حتى انا ورغم البراءة والسن بت اخشى على نفسى !.

فقال آخر :

ـ ممكن ان يشك فى امرك رجال الثورة العرابية لا هذه الثورة !.

ان الرواية الصغيرة الحجم ـ الكرنك ـ هى اشد روايات نجيب محفوظ هولا حتى الآن ، مع انها اصغرها حجما ..

انها الرواية التى تفصح عن كل ما كان .. يجمجم به ويرمز له منذ عشرين عاما ..

الانسان والانسانة فى هـذه الرواية يسـحقان حتى النخاع ، ويفقد الشاب ما يجعله شابا ، وتفقد البنت كرامة روحها وجسدها فى مشاهد من الاهدار الجنونى ، تجعلك تتساءل : كيف يؤمن الانسان بنوعه الانسانى ؟. هل يستطيع الانسان بعد أن يتعرض لهذا ، بل بعد أن يراه مجرد رؤية ، بل بعد أن يقرأ عنه مجرد قراءة ، أن يقول : انى أومن بالانسان ؟!.

تقول زينب : « كنا نشعر بأننا أقوياء لا حد لقوتنا ، أما بعد الاعتقال فقد اضطرب شـعورنا بالقوة ، وفقدنا الكثير من شجاعتنا وثقتنا فى أنفسنا وفى الايام ، واكتشفنا وجود قوة مخيفة تعمل في استقلال كلي عن القانون والقيم الانسانية » .

المدهش أن « خالد صفوان » استدعى زينب بعد أن أفقدها العذاب ما أفقدها فوجدته هادئا أو أكثـر هدوءا من المعتاد ، كأن لم يقع شيء ، وباقتضاب قال :

ـ لقد ثبتت براءتكم !.

ونظرت زينب اليه طويلا ، فجعل ينظر اليها بثبات ولا مبالاة ، ثم صاحت فى وجهه :

ـ ارايت ؟!

فأجاب بهدوء :

ـ انى ارى ما يمكن رؤيته ! .

فهتفت بحنق :

ـ ولكنى فقدت كل شيء !

قال :

ـ كلا .. كل شيء يمكن اصلاحه ، ونحن قادرون على كل شيء !.

فصرخت بجنون :

ـ لا أصدق ان ما يحدث هنا مما ترضى عنه الثورة !.

ثم تجيء بطبيعة الحال الهزيمة الفادحة فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وماذا يمكن أن يجيء بعد أن امسك بزمام الامور فى الظلام رجال أمثال خالد صفوان !!

الموت وفقدان الآدمية والهتك والفتك بطريقة لا يمارسها أبناء الوطن فى أبناء وطنهم ، ثمرة مكتملة المرارة تسقطها على الرءوس وتعصرها فى الحلوق أيد سـوداء خفية يردد الناس أسماءها بين الشك واليقين ، كأنها من الشياطين.

لقد خرج شباب قهوة الكرنك بعد الهزيمة من المعتقل ، الا من قضى نحبه ، وعادوا الى كراسيهم وشايهم وقهوتهم ، ولكن بأى روح ؟! .. « أين أيام البراءة والحماسة .. أين ؟! » .

وكما تقول الرواية : « كانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وافاقت من الذهول الاول ، فوجدت الميـدان مكتظا بالاشباح والاحاديث والشائعات والنكات . وانعقد الاجماع على اننا كنا نعيش أكبر أكذوبة فى حياتنا » .

ويسأل احد رواد المقهى صاحبا له :

ـ وهل شاركت فى هذا الاجماع ؟

ـ بكل قوة العذاب الذى يفتت مفاصلى ، تبخر ايمانى وفقدت كل شيء .

ـ اظنك اليوم جاوزت ذلك الموقف ؟!

ـ درجات ولا شك .. على الاقـــل فانني حريص على تراث الثورة !.

هكذا أراد نجيب محفوظ لأبطال روايته !.

أراد لهم الا يتبخر كل شيء من حياتهم ، فهنا عمل عشرين عاما منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وينبغى الا تحملهم مرارة الثمرة التي ذاقوها على أن يقولوا بيأس وحقد كما قال ابو نواس قديما :

لا أزود الطير عن شجر
قد بلوت المــر من ثمره

فان هذا الشجر هو بلادنا ، لا بلاد الاراذل السفلة الضاربين فى الظلام ، ولا بلاد اللصوص وتجار الرقيق ، ويجب أن نذود عنه جوارح الطير مهما أثقلتنا جراح قلوبنا ونفوسنا .

واذا كانت الاخطاء والخبائث قد تراكمت خلال هـذه المدة غير القصيرة فقد بقى الامل فى انقاذ الشـــعب آخر الأمر ، ولنترحم على كل من سقط أو أسقطوه فى الطريق.

وكيف يمكن انقاذ الشعب ؟! .. تجيب الرواية فى لهجة تقريرية :

● بالكفر بالاستبداد والديكتاتورية ..
● الكفر بالعنف الدموى .
● اطراد التقدم معتمدا على قيم الحرية والرأى العام واحترام الانسان !.

ومن الظلام الشامل يمكن ـــ بعدئذ ـــ أن ينبعث نور باهر ، ويمكن ان تسرى الحياة فى كلمات كادت تموت ، مثل : الاشتراكية ، والحرية ، والكرامة ، والرخاء .

ويمكن ان يتحقق للحب النقاء والبراءة !. كما تقول الرواية ـ

توفيق الحكيم فى موقفين

كثرت الكتابات عن الاديب الكبير توفيق الحكيم بعد وفاته ، وتحدث النقاد عن مواقفه فى الادب والفن ، ولكن موقفين اثنين من مواقفه تخطتهما جميع الكتابات التى قراناها حتى الآن ، هما موقفه من اللغة العربية ، وموقفه من الغناء والموسيقى العربية .

وبين لغة العرب وموسيقاهم وغنائهم ما لا خفاء به من الوشائج عند جميع دارسى الادب والموسيقى ، وحسبك ان أشهر كتاب فى الادب العربى اسمه « كتاب الاغانى ».

وفى كلية التربية الموسيقية بجامعة حلوان ، وفى الكونسرفاتوار ، وفى معهد الموسيقى العربية بالقاهرة يدرس الطلبة علمين متلازمين هما علم العروض الموسيقى وعلم العروض الشعرى ، ويتبحرون فى عروض الشعر كما كان يتبحر فيه طلبة الحلقاتالازهرية وطلبة دار العلوم قديما .. وهذا ما يجعل طلبة هذه الكليات والمعاهد الموسيقية اعظم معرفة بعروض الخليل بن احمد من طلبة كليات الآداب والازهر ودار العلوم فى الوقت الحاضر .

وقد عاينت ذلك بنفسى وانا اتابع المحاضرات التى تتلقاها ابنتى الطالبة بكلية التربية الموسيقية ، واشهد عملها فى ربط العروض الشعرى بالعروض الموسيقى ، وتدوين ذلك بحرف «النوتة الموسيقية» سطورا متتابعة.

ولا اظن ان كاتبا عربيا خلصت نيته فى حب اللغة

العربية ، يمكن أن تتطرق اليه اثارة من آلبغضاء للغناء العربى والموسيقى العربية ، فضــلا عن ان يتطــرف فى بغضائه فيجعلها كلاما مكتوبا منشورا ينضح استخفافا وزراية بميراثنا من ذلك الفن الجميل .

والقاعدة المطردة فى هذا الشأن هى ان من يكره اللغة العربية ، لابد أن يكره غناءها وموسيقاها .

وقد كان توفيق الحكيم ــ رحمه الله ــ ممن تنطبق عليهم هذه القاعدة ، فتنازعتــه كراهة اللغــة العــربية والموسيقى العربية دهرا طويلا ، وأقام على نفوره منهما بغير تحفظ عشرات السنين ، وســجل ذلك فى كتبــه واحاديثه بلا مواربة ولا تردد حتى العقد السابع من عمره المديد .

ولكنه لم يكن وحده فى موقفه من الموسيقى العربية بوجه خاص .. وقد تهتز هنا القاعدة المطردة التى ذكرناها آنفا ، من اجتماع الكراهة للغة والموسيقى معا ، فان بعض من ساء رأيهم فى الموسيقى العربية ، لم يكونوا يسيئون الراى فى اللغة العربية ، الا فى شعرها أو فى عروضها الشعرى ، أو فى نحوها وصرفها .. مثلا .

اذكر انني قدمت فى سنة ١٩٦٦ كتابا اسمه « الغناء العربى » الى سلسلة « كتاب الهلال » ليصــدر عنها ، فرفضه رئيس تحرير هذه السلسلة حينذاك ــ وكان صديقا لنا وما زال ــ معللا رفضه بأن الموسيقى العربية ذات طبيعة متخلفة مناهضة للتقدم ، ولكن الاستاذ أحمــد بهاء الدين ، وكان رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال ، أمر بطبع الــكتاب ونشره ، مع أن الاستاذ بهــاء من محبى الموسيقى الاوروبية ، ولكنه لا يجد تعارضا بين حبها وحب

الفناء العربى والموسيقى العربية ، فلكل منهما كيان فنى قائم بذاته لا يلغى الكيان الآخر !.

ولعل صديقنا الذى حاول منع نشر كتابنا قبل عشرين عاما ، قد عدل الآن عن بعض آرائه القديمة فى مسائل الادب والفن ، ومن بينها مسألة الموسيقى العربية !.

لقد جار الزمان على الفناء العربى والموسيقى العربية حتى أوشك ان يمحوهما منذ سقوط بغداد فى القرن الثانى عشر الى عصر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر ، اى خلال سبعمائة سنة .. ولكن هذا الفن العربى دبت فيه الحياة كما دبت فى الشعر العربى فى منتصف القرن التاسع عشر ، فكان الملحن المغني الشيخ محمد المسلوب ثم الملحن المطرب عبده الحامولي — وهما رائدا نهضة فن الفناء العربى المتقن — معاصرين للشاعر محمود سامي البارودى باشا باعث الشعر العربى المتقن فى ذلك العصر الذى بدأ فيه انبعاث الحياة فى جميع المجالات .

ثم تتابع سيد درويش والقصبجي وزكريا احمد وعبد الوهاب والسنباطى ، وصوت أم كلثوم — الذى لعب دورا أساسيا — فاكتملت نهضة الفناء والموسيقى ، وانفتح الباب على مصراعيه لاقامة صرح جديد مستقل للموسيقى العربية غير قائم على التقليد الحرفى الأعمى للموسيقى الاوروبية « العالمية » لان السمات القومية فى الفناء والموسيقى لا يمكن الفاؤها بمرسوم ، ولا يوجد فى عالمنا شيء « عالمي » بالمعنى الفضفاض الساذج الذى يتصوره — أو كان يتصوره — بعضهم لهذه الكلمة التى استبدت بالافهام زمنا طويلا .

ان الخصائص القومية التى تصنعها عوامل التاريخ العميقة تتأصل راسخة فى الوجدان والادب والفن ولسوف

تصبح الموسيقى العربية « عالمية » عندما يصبح للعرب كلمة فى العالم ، لان من تسمع الدنيا كلمته ، تسمع موسيقاه !.

هذه باختصار شديد قضية الغناء والموسيقى العربية ، وهى بعينها قضية اللغة العربية ، والادب العربى ، فلن يظفر أديب عربى بسمعة دولية ، ولن ينال جائزة عالمية ، ما دامت الامة التى يكتب بلغتها قد تراجعت عن الشأو البعيد الذي كانت قد بلغته فى سالف الزمان .

ومن أسف ان توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ لم يسنح له أن يقف حيال اللغة العربية والموسيقى العربية موقفا صحيحا ، ولم يتقرب من هذا الموقف الصحيح الا فى اخريات حياته .

ففى كتابه القديم « زهرة العمر » قال : « انك لن تجد مستنيرا فى مصر لا يقول لك أن اللغة العربية ـ مع الاسف ـ قاصرة عن التعبير فى شتى ضروب العلوم والفلسفة والتفكير العالى ، بل منهم من يقول انها ليست لغة تفكير، انما هى لغة بهرج وتشميق » .

ان توفيق الحكيم يذكر ـ بهذه الصراحة ـ هذا الرأى الذى يصفه بأنه رأى جميع المستنيرين فى مصر ، ولا يذكر كلمة واحدة فى تفنيده ، لانه هو نفسه واحد من هؤلاء النخبة « المستنيرين » الذين يذكرهم ويحاول التهويل بكثرة عددهم وقوة اجماعهم على « رأيهم » .. كأنه يحتمى بهم ويتوارى خلفهم ، ثم يتبرأ منهم عند الضرورة !.

لم يكن توفيق الحكيم يتظاهر بعداوة اللغة العربية ، لفتا للأنظار كما فعل عندما نادى بنفسه عدوا للمرأة ،

وانما كان صادقا فى موقفه ، مقتنعا بأن الحق كله فى جانبه .

ولكن يشفعله انه قال هذا الكلام فى شبابه وهو مبهور بأوروبا ، لغة وموسيقى وأرضا وسماء وماء ، ورجالا ونساء .. ولم يكن فى تلك الايام على علم باللغة العربية ، حتى قال زميل صباه الدكتور حسين فوزى فى بعض احاديثه عنه انه ـ أى الحكيم ـ لم يكن يعرف اللغة العربية فى أول نشأته الادبية ، فلما وجد أنه يكتب بها ولابد له من معرفتها ، شمر لها وحشد عزيمته فى طلبها حتى استقام له بعد كفاح عنيف ، أن يكتب بها كتابة صحيحة ثم صار من كبار كتابها ، وعضوا فى مجمعها اللغوى .

ومعنى ذلك ان توفيق الحكيم لم يكن يتهم اللغة العربية بالقصور الا حين كان قاصرا هو نفسه عن التعبير بها لضعف معرفته بها .. ولعله لم يجد منها قصورا بعد أن عرفها ، عن الخوض فى العلوم والفنون والفلسفات والوان « التفكير العالى » .. على حد تعبيره .. فقد حاول هو نفسه أن يخوض بلغته العربية الوان التفكير العالى التى يحدثنا عنها ، فلم تقصر اللغة ولكن ربما قصر التفكير احيانا .

مع ذلك ظلت آراء الحكيم فى اللغة العربية ثابتة فى طبعات كتبه المتوالية وقد طبع كتابه « زهرة العمر » الذى هاجم فيه اللغة العربية طبعة جديدة فى أخريات أيامه ، فلم يمس حرفا مما قاله عن اللغة العربية ـ وكان عضوا فى مجمعها ـ فلعله أبقى ذلك الراى الخاطىء فى مكانه ، للذكرى والتاريخ !.

أما الغناء العربى ، فقد خصه توفيق الحكيم فى كتابه هذا ، فى طبعته الاخيرة ، بهذه الكلمات : « البارحة كنت فى القاهرة وحضرت حفلة غناء شرقية ، فرأيت عجبا ! الحاضرين هم ولا شك من اهل القرن العشرين ،

ولكن الموسيقى هى من غير شك موسيقى القرن العاشر ».
ولا ندرى من اى قرن عاشر يتحدث توفيق الحكيم !.
ان كان يقصد القرن العاشر الميلادى ، ففيه كان الاوروبيون لا يعرفون شيئا اسمه الموسيقى الا ما يلتقطه بعضهم من موسيقى الاندلس العربية ، وينقلونه نقلا محرفا شائها ، ولم يكن لاوروبا حرف واحد من موسيقاها الباذخة التى يشير اليها ضمنا فى كلمته هذه التى يسخر بها مما يسميه « الموسيقى الشرقية » .
واذن فالموسيقى التى كانت متخلفة فى القرن العاشر الميلادى ، هى الموسيقى الاوروبية ، بل كانت غير موجودة اصلا .

والقرن العاشر الميلادى يقابل عندنا نحن العرب القرن الرابع الهجرى ، وفيه كانت الموسيقى العربية قد بلغت الأوج ، وليت الاستاذ الحكيم ـ رحمه الله ـ كان قد سأل فى هذا الشأن علماء الموسيقى الاوروبيين انفسهم ، ولم يكتف بسؤال امثال صديقه الموسيقى الهاوى الدكتور حسين فوزى « المؤلف الحقيقى » لتلك الآراء التى لبث توفيق الحكيم يرددها زمنا طويلا .
ويبقى أن نقول أن الغناء « الشرقى » ـ كما يصفه الحكيم ـ ليس هو الغناء العربى ، وانما هو الغناء الهندى والصينى واليابانى والمغولى والافريقى ، وما الى هذه الالوان من الغناء غير الاوروبى .. وقد اعتاد الاوروبيون ـ لجهلهم فى هذا المضمار ـ أن يضعوا جميع الوان الغناء غير الاوروبى فى سلة واحدة ، ويطلقون عليها اسم « الغناء الشرقى » .
واحدة ، ويطلقون عليها اسم « الغناء الشرقى » .
وشتان بين الاصول الفنية الغناء العربى ، والاصول التى تقوم عليها الوان الغناء الشرقية الاخرى ، فان

الإختلاف بينها لا يقل عما بين أصول الغناء العربى وأصول الغناء الاوروبى من اختلاف كبير .

على أن توفيق الحكيم ـ رحمه الله ـ انما سمع لونا من الغناء العثماني الذى كان يتردد فى بعض القصور والدور فى القاهرة الى ما بعد العشرينيات ، ولم يكن أصحاب هذا اللون من الغناء يعرفون شيئا من الغناء العربى المتقن ، ولكن توفيق الحكيم سارع فرمى فى وجه الغناء العربى بحكمه ذلك ، بلا تفرقه بين الغناء العربى والغناء « العثمانلى » .

على أن من حق توفيق الحكيم علينا ان نقول انه راجع نفسه فى أخرياته ، فتغير بعض رأيه فى الغناء والموسيقى ، حتى ان آخر لقاء له مع تليفزيون القاهرة كان اشبه باعترافات يصحح بها مواقفه في هذا الشأن وفى غيره من الشئون ، فامتدح « الطرب » فى غنائنا وقال أنه ميزة ينفرد بها ولا يعرفها الغناء الاوروبى ، واننا يجب أن نتمسك بها ، لا ان نهجرها كماكان هو نفسه ينادى بهجرها فى شبابه !.

ومع ذلك بقيت آراؤه فى الغناء والموسيقى جزئية وبلا عمق ، ولا تدل على علم غير عادى ، أو ذوق يعلو على الأذواق ..

وحكاية توفيق الحكيم فى الغناء والموسيقى ـ كحكايته مع اللغة ـ فرع من حكاياته الطويلة مع الفن والادب ، تعبر عن شخصيته القلقة السريعة التحول ، الآخذة بالجديد عندما ترتفع موجته ، النافضة يدها من كل ما لا يجلب الصيت والاضواء من قريب أو بعيد .

وتوفيق الحكيم بما كتب وعاش وخاض من غمرات الفن والادب والحياة .. كان شخصية فريدة بلا مراء ، تختلف فيها الاراء ، ولكنها تتفق على تفردها وامتيازها واستحقاقها للبقاء ، بين الخالدين من الفنانين والمفكرين والحكماء !.

فتحي رضوان
وفصل واحد

لولا الكاتب الكبير فتحي رضـــوان من جيل نجيب محفوظ لقلنا أن عدوى موضة الحوار القصصي قد أصابته، لان كتابه الجديد الذى سماه « مومس تؤلف كتابا » هو مجموعة حواريات قصصية ، وان كانت مسماة مسرحيات ذات فصل واحد .

يضم الـكتاب عدة مسرحيات قصـيرة أو حواريات قصصية ـ سمها كما تشاء ـ تتجه كلها الى تقد اركان خاصة من المجتمع ، من بينها مثلا ركن رجال الاعمال الاثرياء ، او المغامرين المفلسين على حواشي الاعمال الجالبة للثراء الواسع ..

وفى آلمسرحية الاولى « مومس تؤلف كتابا » التى سميت المجموعة باسمها ، يقدم فتحي رضوان تصورا خاصا للمراة الصالحة وللمراة السـوء ، وللـرجل الطيب وللرجل الخبيث !.

وكانى ارى فى عنوان هذه المسرحية شيئا من المبالغة ، فالمومس كلمة ذات معنى خاص عند القارىء العربى ، وقد تغير معنى هذه الكلمة او « تطور » بمرور الزمن واختلاف العلاقات الاجتماعية .. وليست المومس بمعناها القديم الذى تتحدث عنه مسرحيـة فتحى رضوان هى غانيـة اليوم ، او حتى غانية الامس القريب . كما ان الرجال

الذين يخشون ان تؤلف الغانية عنهم كتابا لا وجود لهم الآن بالصورة التي نفهمها من المسرحية .

وتبدو هذه المومس أو هذه الغانية اشبه براقصات الثلاثينات على عهد بديعة مصابنى ، اذ كان الباشوات والاعيان والعمد وأبناء البيوتات لا يجدون حولهم الا الراقصات الاجنبيات والمحليات والمتمصرات ، ومن اليهن ممن تفرغن لهذه الامور وفتحن بيوتا تعيش على كرم أولئك الاثرياء وأريحيتهم وتقديرهم الخاص لما يستمتعون به ..

تحاول المسرحية أن تقول أن العلية والخاصة تلذ لهم نزواتهم ولكن افتضاحها لا يلذ لهم بطبيعة الحال ، فيحاولون منعه ولو بذلوا الجزيل من أموالهم . وهذا صحيح فى كل مجتمع ، من مجتمع الغانية كريستين كيلر فى بريطانيا المعاصرة الى مجتمع غادة الكاميليا فى فرنسا القرن التاسع عشر شرقا وغربا فى عصور أسواق الرقيق ا .

المهم أن تفصح المسرحية عن عصرها وتنم عنه وتتكلم بلسانه .. وهذا ما يحاول قارىء « مومس تؤلف كتابا » ان يتبينه من خلال الحوار البارع السخى الذى جاد به قلم هذا الاديب العريق فى الادب والفكر .

يوسف ادريس مع الثيران

.. هذه القصة لو تحولت الى فيلم ضخم بالالوان لاثارت العالم كله ضد مصارعة الثيران (١) .

لو استطاعت السينما ان تجسم المشاعر والعواطف والانفعالات كما جسمها يوسف ادريس فى قصته ، لاهتزت أعماق الانسان فى كل مكان ، للمأساة الدامية التى يمثلها القاتل والمقتول فى « الارينا » .. أو ساحة مصارعة الثيران !.

ولكن قصة يوسف ادريس لن تظهر على الشاشة بالالوان ، ولا بغير الالوان ، لانها قصة فاضحة .. تفضح « اللعبة » التى يحج اليها ألوف « السياح » مزودين بالدولار والاسترلينى والمارك والفرنك .. فتتكدس العملات الصعبة فى بنوك اسبانيا ، ويبقى الشعب هناك فقيرا ، بل افقر شعوب أوربا ، طبقا لاحصاءات الامم المتحدة .

ويوسف ادريس لم يفضح لعبة الرجال والثيران بالخطب والمواعظ وبمناشدة الانسان أن يكف عن قتل الحيوان والتمثيل به .

ولكنه عرض اللعبة عارية من جميع ملابسها المزركشة، واعلامها الملونة .. من خلال قصة انسانية غاية فى البساطة ، غاية فى الدقة والصعوبة والجمال .

---

(١) قصة رجال وثيران ليوسف ادريس من اعماله فى الستينات ولم تظهر فى السينما

انه استطاع بنعومة القصصي الموهوب المـدرب أن يلتقط من زحام « الارينا » وجها شاحبا غامضا ، هو بالذات وجه مصارع ثيران ناجح تصفق له ستون الف كف ، وترشقه أجمـل النســاء بالازهار ، وتهتف له عشرات الآلاف من الحناجر بهتاف ساحة المصــارعة التقليدى : « أوليه » .. الكلمة التى حرفها الاسـبان عن كلمة « الله » ! .

وانتصر الوجه الشاحب فى ساحة المصارعة .. توالت انتصاراته .. ثم .. فى النهاية .. واجه الثور الذى لا يريد أن يموت قبل أن يأخذ بثأره من قاتله .

وهكذا سقط المصارع تحت القرنين الرهيبين .. ورآه الثور مضرجا بدمائه قبل أن يتهاوى هو بدوره ويسقط ذبيحا مسفوح الدم ، حتى آخر قطرة !.

والناس الذين يسيحون فىالعالم طلبا للمتعة والاثارة ، يذهبون الى ساحة مصارعة الثيران ، لا ليشاهدوا الرجل وهو يقتل الثور .. « انها كذبة .. كذبة .. انهم يأتون على أمل ان يقتل الثور المتوحش الرجل ذا السيف .. وحبذا لو حدث القتل أمامهم .. انهم لا يجـاهرون برغبة كهذه ، لانها تبدو شاذة كريهة غير لائقة بالرجل المتحضر ، ولكنها الرغبة الكامنة فى صدورهم » .

هكذا قال أحد مصارعى الثيران الذين تقاعدوا بعد كفاح طويل ضد الثيران .. هكذا قال ليوسف ادريس فى حوار بديع دار بينهما بعد سقوط المصارع ذى الوجه الشاحب تحت قرنى الثور .

ويستطرد الرجل قائلا : « نحن نعرف هذا ، وأصحاب الفنادق يعرفون هـذا ، وشركة كوك تعرف هـذا ،

ومصلحة السياحة تعرف هذا ، والبنوك والحكومة والكنيسة تعرف هذا .. كلها تعرف أن كذا رجلا سيقتلون فى هذا الموسم كذا ثورا ، وان كذا ثورا ستقتل على وجه التقريب كذا رجلا ·· ولا أحد أبدا يفعل شيئا لمنع هذا القتل .. بالعكس .. انها تتعاون وتتسابق لكى يتم القتل على أكمل صورة » .

هكذا تدور الامور فى ساحة مصارعة الثيران «الارينا» وخارجها .

العملة الصعبة تتدفق فى الخزائن ، والثيران تتلقى طعنات السيوف ، والمصارعون يسمعون الهتافات أو يسقطون تحت قرون الثيران .. والمحتشدون على مدرجات « الارينا » يجارون كانسان الغابة ، فى انتظار ان يشاهدوا قرون الثور ناشبة فى صدر الرجل .. هذه هى رغبتهم الحقيقية التى دفعوا من أجلها نقودهم ··

والذين لا يعرفون أسرار اللعبة يتصورون ان مصارعى الثيران ، هم بالفعل كما تصورهم الافلام الملونة الضخمة، يعيشون فى عالم من السيارات الفاخرة والسهرات والقصور والنساء الجميلات .

الحقيقة تفجع من يتصورون الامور على هذا النحو البراق .. لقد رأى يوسف ادريس مجموعة المصارعين على حقيقتهم بعد انتهاء الصراع فى « الارينا » .. « فجعت وأنا أرى سيارتين من سيارات التاكسى وقفتا أمام الارينا وشحن فيها المصارعون وصبيانهم .. كل ستة فى عربة » !·

الافلام الملونة الضخمة تطمس الحقيقة اذن ، ولا تقول

ان مصارعي الثيران مساكين كالثيران التي يذبحونهـا بسيوفهم !.

من العسير ان أعطيك تلخيصا لقصة « رجال وثيران » التي استوحاها يوسف ادريس من « الارينا » الاسبانية، تلك الساحة « الصامتة الكئيبة المليئة بالخزى والتقيح والندم والاشمئزاز » .

يكفى القول بأن يوسف ادريس سجل بها تفوقا على نفسه وعلى الاخرين من جيله !.

يوسف ادريس والنداهة

فى « النداهة » .. المجموعة القصصية التى اتحفنا بها يوسف ادريس أخيرا ، يشم الرجال والنساء ـ ولابد ـ رائحة الجنس النفاذة منذ النظرة الاولى الخاطفة ، بل قبل ان يستكملوا خطف النظرة الاولى من هذه المجموعة القصصية البارعة الجمال ، لان الجنس فيها لا خفاء به ولا حجاب عليه ولا اعتذار منه . فهو الارض والاعمدة والجدران والسقف فىهذا البناء القصصىالذى ينهض فوق هندسة فنية لامعة .

ولكن الجنس هنا ليس هو الجنس الفطرى هائما عاريا يصرخ فى الغابة القديمة ، وانما هو الجنس بعد مليون سنة من تطور الانسانية ، وقد أصبح خادما مخلصا فى بلاط صاحبة الجلالة « الحياة » .. اى انه الجنس الفطرى ذاته ولكن فى صورة غير بدائية وهدف غير بدائى ، لانه يخدم تطور الحياة البشرية ، وارتقاء الانسانين : الذكر والانثى !.

وفى قصة « النداهة » التى سميت المجموعة باسمها ، يرسم يوسف ادريس لوحة تمسك بأحداق عيون القراء والقارئات : « كانت فتحية راقدة على ارض الغرفة والولد الصغير ملتصق براسها العارى ينتحب مرعوبا وهو يجذب شعرها بشدة بينما هى عارية الرأس ، عارية الساقين والفخذين ، عارية كلها أو تكاد ، وفوقهما

يرقد أفندى بجاكتة وبلا بنطلون او سروال وانما مؤخرته العارية قد ذابت فى عرى فتحية وانتهى الامر » .

فتحية هذه قروية شبه حسناء ، جاءت الى المدينة برغم ارادتها ، تدفعها سطور مكتوبة على جبينها ، وترسم مصيرها أقدار غامضة كتبت أن هذه القروية البريئة ستزل كارهة مرغمة تحت اغراء رجال المدينة ذوى المكر والدهاء .

وعندما زلت فعلا وفوجىء بها زوجها فى هذا المشهد الذى نقلناه اليك كما كتبه يوسف ادريس بالضبط هان عليها الزلل فواصلته وعاشت فيه !.

وفى قصة « مسحوق الهمس » يمتد حريق الجنس الى أفكار شاب سجين فى زنزانة انفرادية ، فيصور له خياله امراة سجينة فى الزنزانة الملاصقة له : « لدى ذكر النساء وعالمهن واستحضار المرأة فى ذهنى تتدفق غريزة وحشية مكتسحة كأمطار الصيف فوق خط الاستواء ، تنهال على سطح البحيرة الآسن الراكد البليد .. مجرد وقع الكلمات على الاذن .. النساء ذلك التضاد القاهر المكهرب معك ، الذى تحن اليه وترغبه وتريده كما تريد الحياة نفسها .. مجرد تصورك لاجسادهن المختلفة ، لانبعاجاتها المثيرة ، لملابسهن ، حتى ملابس السجن الواسعة ، روائحهن الخاصة ، دائما كبصمات الاصابع .. المراة الصدر الحنون والقلب الرحيم والكلمة الحلوة والافخاذ التى يفقد بينها الرجل صوابه » .

هذا الكيان الانثوى الماثل بجبروته الفريزى فى خيال السجين المحروم يفضى فى النهاية الى لقاء مثير — فى الخيال — بينه وبين فاتنته السجينة فى الزنزانة المجاورة ، والتى هى فى الحقيقة لا وجود لها !.

وفى قصة « العملية الكبرى » تختلط روعة فن القصة القصيرة بروعة انهيار السدود والحدود بين الجنس والموت .. تحت سقف واحد فى المستشفى تعمل الحياة عمليها المتناقضين العجيبين : الجنس والموت .. كلاهما من عمل الحياة وباب اليها .

● هكذا ، كل قصص المجموعة : النداهة واخواتها ، جنس يتعرى فى السطور ويرقد بصراحة الصراحة امام الانظار ، ويقول كل شيء .. ليس هناك « عيب » فى الادب والفن ، كما انه لا حياء فى الدين طبقا للحديث النبوى المأثور .

وفى العالم الآن ، تضغط على الفن والادب موجة « الجنس للجنس » .. اذا صح التعبير ، وترفع « البورنوجرافية » الحديثة او « الآداب الفاضحة » راياتها خفاقة فى سماء امريكا وغرب اوربا ، حيث يتخذون من الجنس مادة الهامهم ، على اختلافهم فى صياغة هذه المادة .. والفن والادب وسيطان نشيطان يوفقان بين الرءوس بقوة قاهرة فوق الرءوس وفوق الفن والادب ، والى مدى فاق كل ما عرفته الآداب الفاضحة منذ اليونان والرومان الاقدمين !.

وأدباؤنا ــ وبينهم يوسف ادريس ــ مضغوطون بهذه الموجة العنيفة ، فهم أبناء عصرهم ، ولكن الكثيرين من ادبائنا هؤلاء قاوموا شعار « الجنس للجنس » ومضمونه الاجتماعى والسياسى والحضارى ، واستبدلوا به شعار « الجنس للحياة » !.

وشعار « الجنس للحياة » لا هزل فيه ولا تلاعب بالالفاظ ولا سخرية فى ضم هاتين الكلمتين احداهما الى

الاخرى ، فشأن الجنس فى الحياة لا يحتاج الى بيان ، ولكنه يستخدم ضد تقدم الحياة فى أدب المجتمعات الرأسمالية والاستعمارية الآن . ولا ينبغى أن نتجاهل أن الناطقون بفلسفة وآراء الاستعمار والصهيونية والقوى الرجعية والشريرة الاخرى ، يحاولون ان يضموا سلاح الجنس الى ترسانة اسلحتهم التى تهدد مصير النوع الانسانى كله .

ومنتجو القصص والافلام والمسرحيات والاعمال الادبية والفنية التى تجرى هـذا المجرى فى تلك المجتمعات يتعمدون فى أكثر الاحيان أن يهزموا روح الانسان ويجردوه من المقدرة على امتلاك الواقع ، ويلفظوه يائسا عاجزا نافضا يديه من الكفاح ، مشدوها بما شرب من تلك الكئوس !.

فهل التقى يوسف ادريس فى النداهة ، او غيرها من اعماله القصصية الممتازة بتيار « الجنس للجنس » الذى يكتسح غرب اوربا وأمريكا ؟!.

الحقيقة أنه لم يلتق بهذا التيار ولم يركب موجته ، بل قاومه وافترق عنه . وقد فعل ذلك سائر الادباء والفنانين التقدميين والانسانيين فى مصر والبلاد العربية والعالم كله . اذ ردوا على نداء « الجنس للجنس » بنوع جديد من الكتابة حول الجنس يبطل أثر ذلك النداء ويقوض أسسه الفكرية ويجرده من عوامل اغرائه وانتشاره . فكتابتهم حول الجنس تخدم المضمون الواقعى والانسانى كما تخدم المعمار الفنى للقصة او الاثار الادبية الاخرى ، ولا تنزلق فى منحدر الجنس المكشوف المريض المشبوه الاهداف .. وقد حقق ادباؤنا هؤلاء هذا الهدف الدقيق بدون أن ينسجوا حول الجنس الطلاسم والاساطير

والمخاوف البدائية والنواهى والزواجر وكل ما يمت الى فكرة « الخطيئة » أو فكرة « الرجل » بصـــلب قريب أو بعيد !.

أريد أن أقول أن الكتابة فى أدبنا الحديث عن الجنس هى فى الحقيقة عدوى فكرية من مجتمعـــــات أجنبية . ونحن قوم كنا مغلوبين وكانت تلك المجتمعات هى الغالبة ، ومازال لها بعض الغلبة علينا ، والمغلوب مولع بتقليـــد الغالب كما هو معروف منذ الزمان الاول . ولكن هـذه العدوى الفكرية مستنا أخيرا وقد كدنا نتحرر فلانت فينا مقاومة فكرية ونقدا وتمحيصا ، وانفجر تيار فكرى عربى معاكس اتاح لطلائع مثقفينا ان يفتحوا عيونهم علي مشكلات الجنس بدون أن يصنعوا منها بضاعة استهلاكية لعقولنا وأرواحنا .

ولم تكن هذه شوفينية ادبيـة ولا تعصبا فـكريا أو انغلاقا ثقافيا بأى حال ، فالادب سـلاح أيديولوجي فى أيدينا لا يصح ان نلقيه ونتخلى عنه وليس حتما أن يكون أدبنا امتدادا سـاذجا وتقليدا « طبق الاصل » لما يأتى من وراء حدودنا .

ومن حق الادب العربى أن يتخذ موقفا مضادا لكـل حصان طروادة جديد يتسلل أو يحاول أن يتســـلل الى عقولنا ونفوسنا . وليس يصح فى الاذهان أن نفتح المظلة فوق رءوسنا كلما أمطرت السماء فى أوربا الغربية أو امريكا مثلا . . وليس معنى هذا ان للجنس نظاما شرقيا ونظاما غربيا لا يلتقيان ، فكـل عصر ينظم الجنس على مقتضى أحواله . وما يجرى الان فى « السويد » مثلا ليس رجسا ولكن الرجس هو اغراق الجنس بتهاويل الادب والفن ومؤثراتهما التجـارية والسياسية والاجتماعيـة المشبوهة .

● على هذا الدرب سار يوسف ادريس فى مجموعة « النداهة » بلا خطابة ولا تشنج ولا سطحية ولا ركاكة فى التفكير ، وناقش التناقض بين القرية والمدينة ، وبين الفلاحين المعدمين واضواء المدينة الكبيرة ، بأسلوب فلاح مصرى يكتب عن رجال ونساء من قريته اعتصرتهم ظروف طاحنة لا فكاك لهم منها كأنها أقدار غامضة نافذة الامر ، تنده وتنادى ضحاياها الى مصيرهم !.

ولكن الاقدار هنا ليست الا رمز مأساتهم ، أما مأساتهم الحقيقية التى تنتحل اسم القدر فما هى الا الشروط المادية والروحية لحياتهم ، وما هى الا علاقاتهم بالقوى المختلفة التى تتواضع امامها قواهم المحدودة .

وكشف يوسف ادريس الاعماق التراجيدية ــ حتى من خلال الفكاهة ــ للمحن والمشكلات التى يعانيها سجين الزنزانة ، وسجينة الكهولة والتقاليد العنجهية الريفية البلهاء .. ومجموعة اخرى من اسرى العلم والاستاذية وضحايا الجنس والموت والحياة !.

وفى أطنابه الفنى البديع انتزع يوسف ادريس اللاوعى من ظلماته فجلاه كأنه الوعى ، وحاكمه الى الواقع وامتحن الواقع به ، فى ايقاع سريع واضح يعلو جواب نغمته الى طبقة يحتدم فيها صوت المتناقضات المتصادمة ، ثم يسفر عن رؤية واضحة للحقيقة .

وفى هذا كله ، مرت أمام عيوننا ألوان وصور من العرى الجنسى .. نعم .. لكنه عرى الواقع والمأساة ، لا عرى الاثارة .. عرى يخدم المضمون الانسانى التقدمى ، كأنما يوسف ادريس فى هذا المجال ــ مع فوارق فنية وفكرية لابد منها ــ هو مكسيم جوركى فى قصة « العاهرة » الشهيرة .. حيث يتعرى الجسد ويتغطى به ماء وجه الحياة !.

مصطفى محمود
فى عالم الأرواح

هل نرى الدنيا على حقيقتها ؟. هل السماء زرقاء والحقول خضراء ، والرمال صفراء .. والعسل حلو والعلقم مر .. والزجاج شفاف والجدران صماء ؟. لا .. ليست هذه هى الحقيقة . فما هى اذن ؟.

الحقيقة يبحث عنها مصطفى محمود وراء اينشتين ونظرية النسبية .

ومع ذلك فالكتاب الذى ألفه مصطفى محمود عن هذه المسألة ليس كتابا علميا ، بل خواطر فنان متصوف ادهشه ما يكتشفه العلم فى الكون يوما بعد يوم ، كما ادهشه الكون نفسه ، بأرضه وفضائه ونجومه .

ودهشة مصطفى محمود لاكتشافات اينشتين ، ليست الا امتدادا طبيعيا للدهشة التى أطبقت عليه وهو يتأمل الكون ، قبل أن يقرأ شيئا عن اينشتين .

ولا شيء أكثر من الدهشة الفنية ، والانبهار الروحى فى كتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية .. ان كتابه يعكس نظرته الفنية الى الحقائق العلمية .. نظرته التجريدية المفعمة بالحيرة .

والحقائق العلمية تتحول بين يديه الى فن .. ربما لا تكون فنا متكاملا بشكله ومضمونه ، ولكنه فى على أية حال ، وليس له وصف آخر .

انه ليس فلسفة ، لان الفلسفة هى البناء العلوى للعلم .. انها البرج الراسخ الذى يطل العقل من فوقه الى العلم ، بل الى الحياة والمجتمع والكون بوجه عام .

ومصطفى محمود لم يصعد فى كتابه ، فوق برج يطل منه على الحقائق العلمية ، بل رفع راسه الى فوق ، وتأمل بعينيه طويلا ما يجرى وراء السحاب .

ماذا راى ؟!

راى أن المادة ليست كما كان الناس يتصورونها قديما ، مجرد أجسام كثيفة .. لقد انهار كل تعريف قديم للمادة ، وانهار كل رأى جديد أقامه أصحابه على ان المادة ذات وجود حقيقى ثابت .. فكل شىء فى العالم « المادى » يبدو للعيون فى صورة غير حقيقية ، لان كل تحليل جديد له يعطى العيون صورة أخرى له .. حتى يبدو الحجر الصلد فى النهاية أشبه بالهباء !.

لقد سقطت المادة .. العالم غير مادى .. الحقيقة غير موجودة .. الانسان لا يعرف شيئا فى هذا الكون !.

المادة ــ كما يقول مصطفى محمود ــ « هى قمقم سليمان ، فيه عفريت .. واينشتين هو الذى أطلق تعزيمة الرموز والطلاسم الجبرية ، فانفتح القمقم وخرج العفريت .. المادة ليست مادة .. انها حركة .. ما الفرق بين ان نقول ذلك ، وبين ان نقول انها روح ؟ » .

ولماذا نقول انها روح ؟!.

« لان الروح تعبير صوفى ، نقصد به الفاعلية الخالصة التى بلا جسد .. والمادة اتضح انها فاعلية خالصة .. حركة .. وان جسمها الملموس وهم من أوهام الحواس » .. هكذا يقول مصطفى محمود .

على الصعيد الفلسفى يبدو هذا الكلام مشتقا من نظرات فلسفية قديمة .. فليس جديدا أن يقال ان العالم روح كبير ، ولسنا فيه الا موجودات غير موجودة فعلا .

ولكن مصطفى محمود فى الحقيقة لا يقصد ان يتفلسف .. انه يتأمل فقط .. يمسك شعرة من ذيل الفيل ويقول لنفسه : هذا هو الفيل .

انه فى بحثه عن حقيقة المادة ، الغاها ، وقرر استنادا الى اينشتين انه لا وجود لها .

ولماذا لا وجود لها ؟.

لانها لا تثبت على شكل واحد ، وصفة واحدة ، وكيان اصم لا يتحول !.

ومصطفى محمود — فى كتابه — هدم المادة فعلا .. ولكن اية مادة ؟.

انها المادة كما تصورها القدماء .. الجسم الكثيف الاصم الذى تصوره الناس فى الماضى .. اما المادة الحديثة كما يراها الماديون الآن ، فليس لها تعريف مقدس ثابت .. أن تعريفها الوحيد بالنسبة للانسان ، يتمثل فى أنها قائمة فعلا خارج فكر الانسان .. انها الشىء الذى يواجهه عقل الانسان ويبحث فيه ، ويكتشف أسراره بلا انقطاع ، ولا يقف فى ذلك عند حقيقة مطلقة ، لان كل حقيقة نسبية تقود الانسان الى حقيقة تالية .

وعلى هذا الاساس لا يكون أدنى تناقض بين عالم المادة وبين العلوم التى انبثقت منها القنبلة الذرية .

فالمادة القديمة المبتذلة ، هى وحدها التى سقطت .. وقد سقطت منذ زمن بعيد ، لا منذ انفجار قنبلة هيروشيما فقط .

ان كتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية ، لا يعكس حيرة فلسفية فقط .. انه يعكس ايضا حيرة اجتماعية .. فان وضوح طريق الانسان فى الجماعة الانسانية يقوده الى الوضوح الفلسفى .

ومصطفى محمود يعانى حيرة قديمة ، منذ عشرين عاما أو أكثر .. منذ بدأ يقرأ الكتب فى عزلته ، الى أن أصبحت الكتب عالمه الذى يسبح فيه ، مديرا ظهره للعالم الذى يعيش فيه .

ومن هذه العزلة انبثقت فردية مصطفى محمود التى ما زالت تقوده الى مواقفه حيال كل شىء (١) .

الا أن هذه الفردية المنعزلة المتصوفة ، تنتج دائما فنا ممتعا .. حتى عندما تقرر ان الكون موجود ، ولكنه غير موجود .

وكتاب مصطفى محمود عن اينشتين والنسبية ، هو فن خالص .. يخرجك الى عالم الارواح ، بينما تظن نفسك فى عالم المادة !.

---

(١) هـذا الكتاب يعبر عن آراء مصطفى محمود فى الستينات وكذلك كتبه التى تحدثنا عنها فى الصفحات التالية .

... فى الغابة

حياة الغابة على حقيقتها وبساطتها تجدها عند هـذه القبائل التى تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا .. عند الماساى .. الماكامبا .. الماوماو .. وهى شىء آخر غير حيـاة طرزان وروبنصن كـروزو والسندباد .. هكذا يقـول مصطفى محمود فى كتابه « الغابة » :

ولأمر ما طار مصطفى محمود من قلب القاهرة المدينة المتألقة الى غابات أفريقيا المظلمة ..

المدينة ـ فى رأيه ـ شىء خانق لزج .. الناس يتبادلون الاشـاعات ويتعاطون الاقـراص المنـومة .. الامراض تسحقهم : القرحة .. السكر .. الذبحة .. وكلها أمراض لها اسم واحد حقيقى : المدينة !.

ومصطفى محمود حين طار الى غابات أفريقيا ، كان يشعر بانه مريض بداء مزمن اسمه « المدينة » .
وكما قال .. كان أمله الوحيد فى الشفاء ، هو الغابة بعيدا عن الشىء الخانق اللزج الذى يتعاطى الناس فيـه أقراصاليناموا ..

ليس غريبا أن يفعل مصطفى محمود ذلك .. ففى اعماقه متصوف مذعور من المدينة .. من التطور لا يتوقف أبدا .. من الحقائق تتلاحق فى سرعة مذهلة كاشـفة القناع عن وجه الكون والمجتمع .

وفى الغابة يستطيع مصطفى محمود ان يسترد انفاسه، ويخفى نفسه فى ظلام الاشجار الضخمة المتعانقة ، ثم يلقى من مكمنه الحصين نظرة على الحياة والكون ، يحاول بها أن يفهم المدينة ويفهم الغابة ، ويفهم الارض التى تقلهما ، والسماء التى تظلهما ..

هل يمكن أن يقف الانسان موقفا فرديا من المدينة ، اى من الحضارة التى صنعتها اعمال الجموع البشرية خلال الدهور المتعاقبة ؟.

طبعا .. هناك مواقف فردية حيال جميع القضايا والمشكلات ..

ويستطيع الفرد ان يرفض الحضارة ويلجأ الى الغابة أو الى الصحراء .

ولكنه لن يغير بموقفه هذا ذرة من الآلام النفسية والعقلية التى طردته من المدينة الى الغابة أو الصحراء.

فالمدينة هى التطور الاجتماعى .. هى ثمرة اعمال الناس جميعا ، ومن بينهم الناس الذين لا يسكنون المدينة ، بل يسكنون الريف والصحراء والغابة والمجاهل السحيقة .

والمدينة ليست شيئا ثابتا ، تحكمه « مواصفات » ازلية ، لان المدينة ظهرت بعد الصحراء وبعد الغابة .. وهى تتطور بلا انقطاع ، فبغداد القديمة ، فى عصر الرشيد والمأمون ، كانت مدينة ، وبغداد الان مدينة ايضا ..

ومن بغداد القديمة هرب زهاد ومتصوفة كثيرون ازعجتهم حضارة العباسيين .. فهل معنى هذا أن يهرب

من بغداد الجديدة جماعة الزهاد والمتصوفين أيضا ، لنفس الاسباب التي أزعجت أسلافهم في عصر العباسيين؟!

والمدينة الاقطاعية ، شيء لزج ، وكذلك المدينة الراسمالية .

فهل معنى هذا أن نيويورك الراسمالية مدينة باذخة ، يصاب فيها بعض الناس بالجنون ، من هول ما يسحق أعصابهم .

فهل معنى هذا أن نيويورك الراسمالية قدر مقدور ، وقضاء أزلي لا يمكن الاحتجاج عليه ، ولا يمكن تغييره وتحويله الى شيء انساني ؟!

لو كانت أية مدينة راسمالية أو اقطاعية هكذا ، لحق على الناس اليأس ، ولكان الهروب الى الغابة دواء نفسيا يمكن أن يتجرعوه !

ولكن الحقيقة ، ان علاج المدينة اللزجة التي تنام بالاقراص ، لا يكون بالهروب الى الغابة ، بل بالصمود في المدينة واصلاحها من الداخل .

ان تحويل المدينة اللزجة الى مجتمع انساني نظيف ، هو العبء الثقيل الذي يجب على الانسان المتمدن أن ينهض به .

والواضح في كتاب مصطفى محمود أنه لم يفكر في الغابة كمهرب دائم من المدينة .. فهو انسان متحضر ، على درجة عالية من فهم الحضارة وتطورها .. يؤمن بقدرة الانسان على تغيير العلاقات الاجتماعية الوحشية الى علاقات انسانية .

وهو ينقد المدن التي بناها الاستعمار الاوربي في أفريقيا نقدا ذكيا .. لا يفكر أبدا في هدم هذه المدن التي يعشش فيها الاستغلال الاستعماري ، وانما يفكر ــ فقط ــ في غسل هذه المدن من أدرانها وتحويلها من أسواق تجارية

بشمعة ، الى مجتمعات انسانية فاضلة .

ان مصطفى محمود افلاطون جديد يبحث عن مدينة فاضلة من نوع جديد .

فى دار السلام بتنجانيقا وجد مصطفى محمود « التجارة فى كل شبر وفى كل خطوة .. كل الناس فى دار السلام تجار بشدة ، ليس لديهم وقت لصداقة أو عاطفة .. جرابيع وأفاقون ومغامرون ، وافدون من كل مكان فى الارض جريا وراء الصفقات ! .. »

وعندما وصل الى « نيروبى » عاصمة كينيا وجدها مدينة عجيبة « كل شىء فيها مفسول مكنوس مصقول متألق .. الشوارع واسعة عريضة .. وفى حى الموز كل فيللا حولها فدان من الحدائق ، والانجليز لهم «سرايات» كسرايات عابدين والمنتزه ، وفى كل « سراية » حمام سباحة وحديقة حيوان وسينما وأكشاك من البامبو فوق فروع الشجر للاسترخاء والسرحان .

ومصطفى محمود يصف هذا الذى رآه فى نيروبى بأنه « ثراء فاجر يرهق الاعصاب » .

وفى تجواله بين دار السلام وموزمبيق ونيروبى لم يجد الغابة ، بل وجد « التمدن الفاجر الباهر » !.

المسألة اذن ليست مسألة مدينة وغابة ، بل مسألة مدينة فاجرة باهرة ثرية ترهق الاعصاب !.

لقد حطم المستعمرون الاوربيون مساحات شاسعة من الغابات ليشيدوا مكانها مدنهم الافريقية الفاخرة .. ولم تستطع الغابة أن تقاوم فئوسهم .. فما معنى ذلك !؟

معناه أن الهروب الى الغابة لا يجدى لان « المدينة » تطاردها وتزحف وراءها .

ومعناه ان الهرب الحقيقى من زيف المدينة وبشاعتها ، هو الصمود فى قلبها للاحتجاج عليها وتغييرها !!

... يقابل الشبح

كنت أتوقع ان يصل مصطفى محمود الى هذا المأزق الفكرى ، بعد أن قرأت كتابه « اينشتين والنسبية » .

ففى كتابه هذا كان مصطفى محمود يبحث عن الروح ، ويحاول ان يثبت لنفسه وللناس أن نظرية النسبية تفسر الحياة والكون تفسيرا روحيا ، وأن الحقيقة لا وجود لها فى هذا العالم ، الا على شكل حقائق صغيرة عابرة ، لا تتألف منها اية حقيقة مادية .

وفى كتابه « العنكبوت » يمضى مصطفى محمود على دربه القديم .. يفسر الحياة والمجتمع والتاريخ والكون كله تفسيراً روحياً ، ويبحث عن الحقيقة ليثبت لنفسه وللناس انه لا توجد أى حقيقة فى هذا العالم .

وكتاب « العنكبوت » ليس بحثا فيما وراء الطبيعة فقط ، فان البحث وراء الطبيعة لا يرضى طموح مصطفى محمود الى اثبات الحقيقة أو الى نفى الحقيقة .. ولهذا يطل على ما وراء الطبيعة من نافذة العلم ، بل من نافذة معمل يدار وفق المعلومات الحديثة التى تعترف بها مجامع العلماء فى أوربا وأمريكا ..

ولكن « العنكبوت »ليس بحثا علميا ،ولا فلسفةغيبية، ولا فلسفة مادية ، ولا قصة ، ولا أسطورة ، ولا مطاردة بوليسية ، ولا حلما مزعجا .

ان « العنكبوت » خليط من كل هذه الاشياء ذات

الوزن الثقيل .. فاذا كنت من هواة القصص البوليسية، فستجد متعة كبرى فى « العنكبوت » .. واذا كنت من هواة الاحلام المزعجة والاساطير ، فستنعم بلقاء شائق مع أكثر الاحلام ازعاجا ، واقوى الاساطير عنفا وغرابة .

واذا كنت تبحث عن شيء وراء الطبيعة ، فستلقاه ماثلا أمامك فى كتاب « العنكبوت » .. واذا لم تلقه ، فستتخيله كأنك تراه ، لان مصطفى محمود يجسم امامك ما تطالعه حتى تكاد تلمسه بيديك ، وان كان لا وجود له الا فوق الورق .

واذا كنت تحب الحقائق العلمية والكيميائية ، وتطرب لأسماء المكنات الحديثة ، والاجهزة الدقيقة المستوردة من الخارج ، فستنعم معها بلحظات بديعة على صفحات العنكبوت !.

واذا كنت تشتهى أفلام الرعب ، وتحب أن ترى جسدك يرتعد خوفا ، وحواسك كلها متوقفة عن العمل ، فاذهب مع الدكتور داود الى المقابر لتراه يسرق راس فتاة متوفاة ، وعندما يفتح صندوقها يجد لصا قد سبقه الى الراس وسرقه واختفى كأنه عفريت من الجن !.

كل شيء متوافر ومكدس بعضه فوق بعض فى كتاب العنكبوت .. لان ابطال العنكبوت يعيشون الدهر كله طولا وعرضا ، ويرون بعيونهم خلال نصف ساعة فقط ، فترة من الزمان لا تقل عن مليون سنة !.

ان الدكتور م. داود .. دكتوراه فى جراحة المخ والاعصاب من جامعة برلين .

طرق باب عيادته زائر شاب نحيل مهنته مهندس كهرباء ، واسمه راغب دميان .

لم يكتشف الدكتور م. داود اى مرض عضوى فى المهندس دميان .. وبعد أيام عرف الدكتور داود ـ بمصادفة رائعة ـ ان المهندس الشاب سفاح رهيب يقتل ضحاياه من الرجال والنساء ، ويفتح رءوسهم ليجرى عمليات تشريحية فى المخ .

وبعد تجارب عديدة أجراها المهندس الشاب فى أمخاخ الناس الذين قتلهم ، استطاع أن يحرك الجسم الصنوبرى الخامل فى المخ ، ويجعله محور وجود الانسان ، بل يجعله مخزنا للتاريخ كله ، فعن طريق الجسم الصنوبرى يستطيع الانسان أن يرى بعينيه ، خلال ثلاثين دقيقة ، اكثر من مليون سنة .

وعندئذ يكتشف الانسان انه عاش قبل زمانه ، وشهد احقاب التاريخ كلها ، وولد مئات المرات ، بل ألوف المرات ، حتى وصل فى النهاية الى عصرنا الحاضر ،والتقى بالمهندس الكهربائي الذى قتله وقام بتشريح مخه والجسم الصنوبرى فيه !.

ان المهندس الذى يقتل الناس فى كتاب العنكبوت ، ويتيح لهم ان يشاهدوا بعيونهم مليون سنة ، هو فى الحقيقة الكاتب الرقيق المعروف مصطفى محمود ، يتخذ من المهندس راغب دميان اسما مستعارا يختفى وراءه ، ببراعة ويخفى رغبته الهائلة فى كسر الزمن ، والارتقاء فوق ضروراته ، بحيث يعيشه الانسان كله ، يجمع دهوره المتعاقبة ولو اضطر فى سبيل ذلك الى أن يولد ويموت ثم يولد ويموت ملايين الملايين من المرات ، من الأزل الى الابد .

ومصطفى محمود هنا يعبر عن رغبته فى تفادى النهاية الطبيعية للانسان ، وهى الموت .

ان احياء الجسم الصنوبرى فى المخ يعطى الانسان القدرة على ان يرى نفسه حيا على مدى الزمان ، كأنه يرى فيلما سينمائيا يسجل حياته كاملة من عصر الى عصر ، ومن دنيا الى دنيا .. ومن شكل متعضون الى شكل آخر .

فمن الممكن جدا أن يرى الانسان نفسه ، قبل مليون سنة ، ثورا يدور فى « طاحـون » .. ثم يذبحونه ، فيصبح خادما عند أحد الامراء ، ثم يقتلونه ، فيصبح قاطع طريق فى روما ، ثم يصلبونه ، فيصبح فيلسوفا فى الاسكندرية ، ثم يحرقونه ، ثم يموت ، فيصبح تاجر غلال فى البصرة ، ثم يموت ، فيصبح شاعرا فى بلاط امير اندلسى .

وهكذا .. حتى يصبح فى النهاية محرراً فى روز اليوسف ، اسمه الدكتور مصطفى محمود .

« ان الاصوات فى هذا الكون لا تفنى .. وكل الوان الطاقة يتحول الواحد منها الى الآخر ولكنها لا تفنى .. كل شىء باق .. لا شىء يضيع فى هذه الدنيا .

« اننا نشعر بالمؤثرات العصبية على هيئة حرارة وبرودة وضوء ورائحة وألم ولذة .. ولكن كيف ؟. هل هى ترجمة صحيحة ؟. هل الماء لا طعم له ؟. هل الليل أسود والنهار أبيض ؟. ان السر فى المخ .. حقيبة الاسرار ومفتاح جميع هذه الرؤى السحرية .. وأخيرا تلك الزائدة الغيبية فى المخ البشرى .. « الجسم الصنوبرى » .. التى تتدلى مثل ترمسة صغيرة وسط المخ بلا وظيفة ، وبلا دور معروف » ..

هكذا يقول مصطفى محمود فى « العنكبوت » .. وقد

استطاع المهندس دميان ان ينبه الجسم الصنوبرى بقذائف الاشعاع وبمادة كيميائية فاذا به يتحول الى حاسة مرهفة .. عين داخلية ترى وتسمع من خلال الماضى .. رادار يكشف شبكة الحوادث ويخرق حجب الزمن ويرينا الزمان كما نرى المكان .

« ان وجه الدنيا ليتغير كثيرا اذا قدر لنا ان يتسع نطاق رؤيتنا الى هذا المدى ، فنرى الماضى ، كما نرى الحاضر ، ونسمع الاحداث التى زالت وغبرت ، كما نسمع الاحداث التى تجرى حولنا الآن .. اننا نصبح كالملائكة .. كالانبياء .. كالارباب » .

هكذا - ايضا - يقول مصطفى محمود فى «العنكبوت» .. وبهذا الذى يقوله يلغى الزمن وهو يتخيل انه يعيشه كله .. ويلغى المكان ايضا ، وهو يتخيل انه يتمدد فيه كما يتمدد فى سريره بعد كتابة مقال .

ولا حاجة بنا بعد ذلك ان نقول انه يلغى التاريخ الاجتماعى للانسان ، كما يلغى التاريخ البيولوجى ويلغى جميع العلوم والفنون ، ويلقى بجميع الحقائق فى سلة المهملات ! .

ولكنه - مع ذلك - يقدم لك فى كتيبه الصغير مغامرة بوليسية فلسفية فنية علمية ، تقرؤها من اول صفحة الى آخر صفحة .. ويقدم مرحلة جديدة من تفكيره ، الذى بدأ بالبحث عن الروح فى نظرية اينشتين ، ووصل الى اكتشاف خلود الانسان فى المهندس دميان والدكتور داود .

... مع الافيون الأصفر

الورق الاصفر ، هو بطل رواية « الافيون » .. اما عبد المقصود افندى فليس الا ضحية صغيرة من الوف الضحايا الواقعين فى براثن الورق الاصفر .

كان عبد المقصود افندى ـ فى صباه ـ طالبا نجيبا تملأ راسه الاحلام العريضة .

دخل كلية الحقوق وقال لنفسه : خلاص يا عبد المقصود .. ستصبح بعد اربع سنوات فقط اشهر محام فى مصر .

« ولكنها كانت مجرد أحلام ، لم تدم اكثر من سنة ، اضطر بعدها أن يهجر دراسته ليبحث عن عمل » .. فان والده الشيخ المهدى صاحب مكتبة المهدى بزقاق الصنادقية بالازهر ، سقط ذات يوم مشلولا .

واستقر المطاف بعبد المقصود افندى فى وظيفة بالدرجة الثامنة ، يمارسها نهارا .. ثم يجلس بقية النهار وبعض الليل فى مكتبة والده المقعد فى البيت .

وفى المكتبة بدات قصة عبد المقصود ، او محمد افندى عبد المقصود الهادى المهدى .. اذا أردت اسمه كاملا .

« وفى مكتبة المهدى غرق عبد المقصود فى عشرات الكتب الصفراء ، امثال : مجريات الديربى الكبير .. تسخير الشياطين فى وصال العاشقين .. كتاب الرحمة فى الطب والحكمة .. تذكرة داود .. شمس العرفان ..

سحر الكهان فى تحضير الجان .. الكلمات السرية فى مناجاة الارواح السفلية » .

هذه نماذج قليلة من أكداس الكتب الصفراء التى غرق فيها محمد عبد المقصود ، ليضيف ما يكسبه من بيعها الى مرتبه الضئيل من وظيفة الدرجة الثامنة ، ويحاول بما يجمعه من المال القليل أن يعول والده المشلول وأسرة كبيرة ، يتعلم أولادها فى المدارس والجامعات .

ومحمد عبد المقصود له أخ اسمه ابراهيم .. مهندس زراعى ، غير متزوج ، مرتبه ثلاثون جنيها ولكنه يعيش فى حدود مائتى جنيه شهريا ، يسكر ويقامر ويصاحب الارتيستات ، ولا أحد يدرى مصدر هذا المال الوفير الذى ينفقه .

اما أولاد عبد المقصود فاكبرهم فتحى ، فى السنة الاولى بكلية التجارة .. « ولد فحل خشن الصوت فى طبعه صرامة وجفوة .. دخل السجن عدة مرات فى قضايا سياسية .. يعيش منفصلا عن بقية البيت عاكفا على كتبه ، وهى دائما كتب أجنبية » .

وزوجة عبد المقصود ، اسمها « زينب » .

وزينب كما يصفها مصطفى محمود « ليست من صنف النساء الذى تراه فى شارع عماد الدين ، فهى من نوع آخر .. وهى باستثناء هذه العادة فى تقميط الفساتين من الخلف ، تحرص دائما على الا تكشف أى جزء من جسمها .. وهى أمرأة بلدى .. طرية ... هذا صحيح .. ولكنها لا تزغر الى الرجال هذه الزغرات الجريئة التى نراها فى عيون البنات المودرن .. وانت لا تشم منها روائح الاربيج والشانيل ، وانما تشم روائح اخرى يعرفها العطار

.. روائح تعطعط وتمـلأ الخياشيم ، وتمتزج بروائح الزنجبيل والمفات واليسنسون » .

ولابد أن يقف القارىء وقتا عند أوصاف زينب زوجة عبد المقصود ، فان مشكلته الحقيقية تبدأ من هنا .

فبعد أن غرق فى الكتب الصفراء ، بدأ يغرق فى « تحويجة » يصنعها له العطار تشد أزره فى خلواته .. ولكن سحر هذه « التحويجة » بدأ يبطل لأن عبد المقصود أفندى مشغول بكتبه الصفراء عن زوجته زينب .

وبالتدريج تتحول العلاقة بينه وبين زوجته الى ازمة معقدة .. فانه ـ برغم انشغاله فى كتبه ـ قد أفاق الى نصيبه فى الحياة الزوجية ، ولكن افاقته جاءت بعد الاوان .. لانه اصبح غير قادر على ما يتطلع اليـه من ذلك النصيب .

انه يدس يده فى جيبه يتحسس القرطاس ، ويخرج منه « التحويجة » ويأخذ فى مضغها واستحلابها ببطء ، ويمشى متخاذلا الى زوجته ، وكأنه يمشى على بطنه .. لم تعد التحويجة تنفع » !.

ولماذا لم تعد التحويجة تنفع ؟

ان عبد المقصـود يتهم « الشيخ معـروف » العطار بالغش فى التحويجة .. ولهذا لم تعد تنفع « الله يلعنك يا شيخ معروف » !.

وتزداد العقدة تعقيدا ، ولا مهرب منها لعبد المقصود الا الى الكتب الصفراء .. والى الشيخ « بويحيى » المغربى نزيل حى الازهر .

والشيخ « بويحيى » بلغ السبعين من عمره ولكنه

ما زال ريان تتدفق الصحة من خديه .
وهو يهتم اهتماما خاصا بعبد المقصود افندي ، ويبشره بأن الاقدار السعيدة قد اختارته هو بالذات ليكون المهدى الذى يهدى الناس الى الخير .
ويطير عبد المقصود فرحا لهذه البشرى الرائعة ، فان الاقدار التى حرمته من المال والجاه ، لم تحرمه أخيرا من هذا المقام العالى المهيب الذى بشره به الشيخ بويحيى المغربى .
واصبح عبد المقصود أفندى درويشا « طالت لحيته ، وتمزقت ثيابه ، واتسخت هيئته ، واصبح نحيلا ضامرا تلمع عيناه فى جحـوظ غريب .. وانطلق يمشى مشية ذاهلة كأنه يخطو على الهواء ، يخطب ويلقى الموعظة ، ويلوح بيديه كأنه يكلم جمعا غفيرا من الناس ، ويبتسم ثم يكشر ويثور ، ويتحمس ويغضب ، ثم يصفو ويضحك ويمد يديه ويصافح أشباحا خيالية » .
لم يعد يجلس فى دكان الكتب الصفراء ولم يعد يكسب منها الثلاثين جنيها التى يضيفها الى مرتبه .. بل انه لم يعد يقبض مرتبا ، فقد انقطع عن وظيفة الدرجة الثامنة فى وزارة الاوقاف .
والناس مختلفون فى شأنه .
بعضهم يقولون : أصبح وليا وقطبا وآصلا ..وبعضهم يقولون : أصبح مجنونا .
وأخوه ابراهيم المهندس الزراعى يبلغ عنه مكتب الصحة فيضعونه فى « قميص الكتاف » ويشحنونه الى «الخانكة» .. بينما هو يلوح بيديه للناس ويصيح : الرحمة لمن لا يرحم .. العفو عن الظالمين .. الوصية أمانة يا اخواننا .. كل واحد يروح بلده يحمل معه الرسالة .. رسالة المهدى .
وفى الخانكة رقد « المهدى » على سرير صغير يجاور

سريرا يرقد عليه رجل يضع على راسه ثلاث ريشات ويسمى نفسه « نابليون » .. وفى الحجرة رجل بعمامة كبيرة يسمى نفسه « هارون الرشيد » وآخر يسمى نفسه « بيكاسو » .

وانتهت رسالة عبد المقصود أفندي بين جدران مستشفى الامراض العقلية .. لم يستطع أن يبشر لها احدا خارج هذه الجدران الكالحة ، ولم تتحقق له نبوءة الشيخ أبو يحيى المغربى .

لقد كان عبد المقصود ، قبل ان يدخل المستشفى ، يعد نفسه ليكون وليا صالحا له كرامات .. اذا صعد الكرسي للقراءة امام أتباعه ومريديه سمع البعيد كالقريب، بلا ميكروفون .. حتى أهل القرى البعيدة يسمعونه.. حتى الصم يسمعونه .. وأذا سأل سائل أن يكتب له تعويذة أو حجابا ، أخذ الورقة وكتب عليها من غير مداد.

كل هذه الامور الخارقة كان عبد المقصود أفندى يحلم بها قبل دخوله مستشفى المجاذيب .

ولقد ادخله هذا المستشفى أخوه الشقيق ابراهيم المهندس الزراعى .. سامحه الله !.

ولكن الله لم يسامح ابراهيم .. أخيرا أمسكت به يد العدالة وأدين بتهمة اختلاس الاموال التى يتصرف فيها بحكم عمله ، ودخل السجن .

انتهى كل شيء .. غرق عبد المقصود وأخوه فى الطوفان الاصفر الذى كان يبيعه عبد المقصود فى مكتبته بالصنادقية بحى الازهر .

وغرقت أسرة عبد المقصود أيضا فى الطوفان الاصفر .. ولم تعد قادرة على أن تتحرر منه ، فبعد اعتكاف عبد المقصود فى المستشفى جلس ولده الاكبر فى المكتبة الصفراء ليبيع الكتب التى أذهبت عقل أبيه .

وانتهت قصة مصطفى محمود ، ولكن رواية الافيون الاصفر لم تتم فصولها ! .

... صديق الانسان والقرد

وكتاب « يوميات نص الليل » يمكن أن تقرأه قبل النوم ، فتنام سعيدا ، برغم رنة التشاؤم فيه ، لان مصطفى محمود ـ فى هذا الكتاب ـ يسليك ويروى لك الحكايات والنكت والالغاز ، كأنه جدك العجوز .

ومصطفى محمود ـ كعادته ـ يتفلسف فى هذا الكتاب .. يتذكر الآلام العقلية التى أصابته من مطالعة كتب الفلسفة المثالية ، فيقول لك فى أثناء كلامه عبارة « فلسفية » ثم يقفز الى حكمة ، ويكاد أحيانا يضع على راسه عمامة الورع والتقوى ، ويطلق لسانه بالوعظ والارشاد !!

لن يتركك .. لن يمل الثرثرة فوق راسك .. سيتكلم بلا توقف .. هذيان ليلة صيف .. كلام رائع وكلام فارغ .. حتى تنام !

لا يحاول أن يقول لك : أنا فيلسوف .. أنا مفكر .. أنا واحد من الفيران الذين يقرضون بعقولهم الكتب ليل نهار ، ويهضمونها ، ويتعذبون بها !.

وبساطته هذه تجعله صديقك .. هى التى تشجعك على أن تكتب اليه خطابا ليرد عليه فى بابه الصحفى « اعترفوا لى » .

انه يعترف للناس فى كل مقالة وكل كتاب ، فلماذا

لا يعترفون له ؟ لماذا لا يبادلونه الاسرار ؟. لماذا يتفرجون عليه ولا يتفرج عليهم ؟!

وفى كتاب « يوميات نص الليل » يتفرج القارىء على مصطفى محمود بعشرين قرشا .

الكتاب ثمنه عشرون قرشا .. لا يزيد على ثمن تذكرة فى ارخص المسارح .. ولكنك تستطيع دائما ان تزيح عنه الستار وتتفرج ، ثم تطفىء النور وتنام !!

ومصطفى محمود يكلمك باللغة لا بالاشارة ، ولكنه يقول لك : « لقد اكتشفنا افلاس اللغة ، فما اللغة الا مجموعة حروف واشارات ليس فيها صدق غير الصدق الاصطلاحى ، ارتباطنا بالحقائق ارتباط سطحى ، ارتباط بالفاظ » !

هو يريد ان يقول لك اننا نحن البشر لا نعرف الحقيقة .. كلامنا لا يدل عليها !.

هذا طبعا ما يقوله مصطفى محمود فى جميع المناسبات، ولكن يمكن التعليق عليه .

فالالفاظ تمثل جانبا من كفاح الانسان من أجل معركة حقائق الحياة والكون .

ليست الالفاظ عبثا ، فان شرط المعرفة الحقيقية هو تقييدها بالضوابط العقلية التى لا يمكن تصورها بغير اللغة .

الوظيفة ــ كما هو معروف ــ تخلق العضو .. ووظيفة معرفة الحقيقة وتقييدها وضبطها ، خلقت اللغة . وبدونها يصبح الانسان حيوانا .

ومصطفى محمود يقدم اليك فكرة عجيبة .. يقول لك:

ان اللغة تزوير للحقيقة ، وأن الطفل الذى لا يتكلم هو الذى تتعلق به الحقيقة بلا تزييف .

انا لا اصدق هذا ..

فان كل خلية فى الطفل مخلوقة لكي تنمو وتتطور ليصبح الطفل رجلا له عقل يبحث عن الحقيقة ، ولسان يتكلم به عن الحقيقة .

والطفل أهميته فى مستقبله ، لا فى حاضره ، فبدون مستقبله كرجل ، يصبح مخلوقا هشا ، غير ذى موضوع !.

« وحينما يرفع الينا الطفل وجها يقطر بالبراءة والسذاجة ليسألنا : من اين جئتم بى الى هذه الدنيا ؟. فانه فى الحقيقة يضع سؤالا لا يستطيع ان يجيب عنه أحد » .

هكذا يقول لنا مصطفى محمود .. هكذا يتحدانا ويفحمنا !

ولكن .. على اى شىء يدل سؤال الطفل البرىء ؟!

انه — قطعا — يدل على ان الطفل لم يخلق ليظل بريئا — جاهلا — بل خلق لينمو بلا انقطاع ويكتسب معرفة الجيل الذى جاء قبله الى الحياة ، ثم يضيف اليها هو ما يعرفه خلال حياته .. ويسلم كنوز معرفته لمن يجىء بعده !.

هذه هى الحقيقة البسيطة التى يعرفها كل الناس — ما عدا الاطفال — ولكن مصطفى محمود يطلق عليها قنبلة من الدخان ليحولها الى كلام فلسفى يحاول به اقناعك ، بأن « الحقيقة مطلقة من الاسماء » .. والكلام لا يفيد

شيئا فى معرفة الحقيقة فان الطفل الذى لا يتكلم اقرب الى الحقيقة من الرجل الفصيح !.

بل ان مصطفى محمود يذهب الى أبعد من ذلك ، فيؤكد أن المصلح الحقيقى لا يمكن أن يكون مصلحا حقيقيا الا اذا كان له ما يشبه براءة الطفل وسذاجته والهامه .. وعجزه عن الكلام !.

طبعا هناك مصلحون من هذا الطراز ، ولكن المصلح الحقيقى الذى يغير وجه المجتمع لمصلحة جماهير العاملين، لا يمكن أن يكون سعيه الى « الاصلاح » سعيا ساذجا كسعى الطفل الى لعبته ، ولابد له من معرفة ما يسعى اليه معرفة موضوعية .

ومصطفى محمود يعرف هذا ، فهو يقول فى مقالة اخرى : « المعرفة النظرية ضرورية .. المعرفة بالتاريخ وبالتطور وبالطبيعة الانسانية وبالمجتمع » .

ولكن ما يكتبه مصطفى محمود فى مقالة ينقضه فى مقالة اخرى ، وكل فكرة هنا تعلن افلاس فكرة هناك .

وثمة قضايا معروفة تماما يقف امامها حائرا بلا سبب.

مثلا .. لماذا تطور مجتمع الانسان من العصر الحجرى الى عصر الفضاء ، ولم تتطور جماعات القرود ؟!

سؤال لا يحتاج الى مقالة طويلة مليئة بالحيرة .. فان السبب ـ كما هو معروف لمصطفى محمود ـ ان الناس يعيشون فى علاقات انتاج ، تتطور دائما ، وتنقل المجتمع من مرحلة الى مرحلة .. بينما القرد فى الغابة يعيش فى مشاعية حيوانية دائمة .

والسر .. هو العقل .. هو اللغة هو ما يقول مصطفى محمود انه شيء تافه لا يؤدى الى الحقيقة !.

بدون العقل واللغة يصبح الانسان قردا ، لا ينتقل من مرحلة اجتماعية الى مرحلة أرقي منهـا .. هـذه ليست « حدوتة عجيبة من الف ليلة وليلة » كما قال مصطفى محمود معبرا عن دهشته لتطور الانسان وتخلف القرد .. وانما هى حقيقـة بسيطة يستطيع مصـطفى محمود أن يفهمها بسهولة .. ولا شك فى أنه قد فهمها من زمان !.

من المادية إلى التصوف

وقفت اخيرا اتأمل كيف بلغ الدكتور مصطفى محمود مفترق الطرق بين الدين والمذاهب الدنيوية ، فاختار الدين وسار فى طريقه ، حتى صار من أشهر المؤلفين الدينيين – غير الرسميين – فى أيامنا .. ومن أقربهم الى القراء المتدينين فى مصر والعالم الاسلامى .. وانهم لكثيرون .

مصطفى محمود لم يسلك طريقه الروحى الجديد بعد دراسته كتب الدين ، ولكن بعد مطالعته كتب المادة . ولهذا كانت معرفة فكره ذات أهمية خاصة فى رأى كثير من عارفى تطوره الفكرى وتحوله .. وعارفى فضله ومنكريه .

ولعلى احصيت – بالتقريب – عدد ما قرأت له من مؤلفات منذ بضعة عشر عاما الى اليوم ، وعدد ما أبديته من آراء حول كتبه هذه ، فوجدته لم يغب عن ناظرى قط خلال تحوله الفكرى البطىء من الدنيا الى الدين ، ثم خلال تحوله من الايقاع البطىء الى الايقاع السريع العاصف .. كانت سرعته فى التحول طوال السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة كانفجار بركان ، بعد أن كان كل شىء فى قديم كتاباته يوحى بأنه مجرد كاتب جميل الاسلوب ، خفيف الظل ، متنوع المعلومات ، يرعى قراءه بالسمر والسهر فى أوقات فراغهم ، فيملؤها بألوان البهجة والدهشة والحيوية والحبور !.

وحدث أن زرت صديقنا مصطفى محمود مرة فى بيته فلاحظت أسبابا فى تحوله الفكرى كانت خافية ، ففى شرفة منزله ينصب تلسكوب لامع جديد ينظر به الى الفضاء كل ليلة ويطيل النظر والفكر ، كأنما شرفته قمة جبل ، أو غار فى قمة جبل وكأنما عين التلسكوب خيط يمتد بينه وبين أجواز الفضاء .

سألته : أهذا مشروع صغير لغزو الفضاء ؟!

اجاب ــ بل احاول ــ فقط ــ أن أشاهد بعض عجائب ملكوت الله .. انظر الى المشترى .. يا حبيبى المشترى ما اضواك !.

تبينت فى تلك الليلة أنه يقتنى هذا التلسكوب منذ مدة ليمد به عينيه الى القمر والكواكب والنجوم ، ولم تكن سفن الفضاء قد وصلت بعد الى القمر بملاحيها الرواد .

خيل الى أنه ــ بهذا التلسكوب ــ لا يكتفى بالنظر الى القمر ، بل يسجل أيضا خواطره الحائرة على سطح هذا الكوكب الخامد الحائر ، ويبنى على جدبه وفوق جباله بيوت افكار ، ويشق فى ترابه أحواض الزهور !.

ولاشك ان ما شاهده وراء هذا التلسكوب أو أمامه كان من أسباب بداية تأرجحه بين النظرات العلمية البحتة ــ ان صحت التسمية ــ وبين مثاليات الغيب المحجب فى الأستار .

ومن عجائب القمر التى لمسها بعينيه ، استنزال شتى الافكار والاقوال ، ما يأتلف منها أو يختلف على حسب الاحوال .. واستملى من تلك العلالى الفضائية تعبيرات جميلة تمس حقائق الحياة والمجتمع والكون من بعيد أو

قريب ، كسفينة فضــاء تاهت بملاحيها فى اللانهــاية واللابداية .

ولكن هذا التارجح لم يكن الا أول تحول من المادية الى عالم الغيب . ولكم عانى من هذا التأرجح ، وارتج عليه فوق منبره يخاطب قراءه ، فكان منه ما قد يذكره بعضهم حتى الان من ذلك الخليط الوجودى الثورى الرومانسى الصوفى . ولكن حتى هذا الخليط الذى يبدو عجيبا لا يدخل العقل ، كان متعة لكثير من قرائه حينذاك ، بمذاقه الحار ، وحيرته ، وهداه ، وما يستمتعون به من ذلك وما لا يستمتعون !.

ولبث حينا برغم نية التحول ، وبدء العمل بهذه النية، يمس بكتاباته جروحا فكرية وروحية وعاطفية عند كثير من الناس ، وعايشه المعجبون به ، وغير المعجبين ، فى مغامراته الفكرية الجديدة ، وقالوا : انه مصطفى محمود وتقلباته وشطحاته !.

واستمر يصوغ أفكاره المتحولة ، باسلوب اختص به ، ذلك الاسلوب الذى تتراوح كلماته بين لغة الطفولة ولغة الحكمة ، وتتسم نبراته فى الدعوة الى « اصلاح الكون » ببراءة الطفل ، ودهاء المفكر اللبيب .

وهو فى الحالين أب صغير للبشرية المعــذبة ، يرعاها متوجسا عليها وهي تجوب الارض وتوغل فى الفضاء ، ويربت أكتاف أجيالها الجديدة ، وأكتاف أجيالها الكهلة والشائخة ، ولا ينسى أن يترحم على أجيالها السابقة التى اتمت دورها فى الحياة ورقدت فى أجدائها رقدتها الابدية على بساط الراحة الكبرى !.

وقبــل ان يقف مصــطفى محمود نهائيا فى صفوف

المتدينين المتصوفين لم يكن يستطيع أن يرى الدنيا على حقيقتها .. هل السماء زرقاء ، والحقول خضراء ، والرمال صفراء ، والعسل حلو ، والعلقم مر ، والزجاج شفاف ، والجدران صماء ؟!.

وجوابه : لا .. ليست هذه هي الحقيقة .. فما هي الحقيقة اذن ؟!.

ذهب يبحث عنها فى كتب اينشتين ، ويسأل نفسه : اهؤلاء البشر الذين أراهم ، وهذا الكون الذى يضطربون فيه ، حقيقة أم خيال ؟!.

وبعد طول قراءة وتدبر وتفكير همس لنفسه : لقد سقطت المادة .. العالم غير مادي .. الحقيقة !.. ما الحقيقة ؟!. الانسان لا يعرف شيئا فى هذا الكون !.

ويقول فى بعض كتاباته خلال تلك الفترة من تحوله الفكرى : « المادة هى قمقم سليمان ، فيه عفريت ، واينشتين هو الذى أطلق تعزيمة الرموز والطلاسم الجبرية فانفتح القمقم وخرج العفريت .. المادة ليست مادة.. انها حركة .. ما الفرق بين أن نقول ذلك وبين أن نقول انها روح ؟! » .

ولماذا يختار مصطفى محمود أن يسمي المادة روحا بعد ان اكتشفت أن المادة مجرد حركة ؟!

لأن الروح — كما يقول — « تعبير صوفي نقصد به الفاعلية الخالصة التى بلا جسد .. والمادة اتضح انها فاعلية خالصة .. حركة .. وان جسمها الملموس وهم من أوهام الحواس » .

وفى تلك الايام التى كتب فيها هذا الكلام قيل له : ان هذه الافكار — على الصعيد الفلسفي — ليست جديدة ..

اما ان أردت العلم المحض فان المادة ذات الجسم الكثيف التى قال بها القدماء ، قد سقطت علميا .. لم يعد للمادة فى عصرنا تعريف ثابت مقدس .. تعريفها الوحيد عند العلماء الجدد ، انها قائمة فعلا خارج فكر الانسان .. تواجه عقله ، ومهمته ان يبحث فيها ويكتشف اسرارها بلا انقطاع ، ولا يقف خلال هذا البحث عند حقيقة نسبية مهما كانت ضخمة فيظن انها هى الحقيقة المطلقة ، لا كل حقيقة نسبية تقود الباحث الى حقيقة تالية .. بهذا قالوا له .. وعنه أعرض ونأى بجانبه .

ولقد سقطت المادة القديمة فعلا .. سقط تعريفها بالجسم الكثيف وما الى ذلك من تعريفات ، وبقيت المادة « غير المادية » التى ترتبت عليها العلوم الذرية وغيرها .. أو لعل هذه المادة غير المادية هى التى خرجت من أحشاء العلوم الذرية ! .

وورواية « العنكبوت » التى كتبها مصطفى محمود منذ سنوات وظهرت فى التليفزيون ـ على حلقات ـ وكذلك رواية « رجل تحت الصفر » التى ظهرت أيضا فى تلك الفترة ، أساسهما هذه الفكرة : المادة فى تحليلها النهائى روح ، لان كل تحليل لاى شىء فى عالمنا المادى ، يعطى العيون صورة أخرى منه ، حتى يتساوى الحجر الصلد فى آخر المطاف مع الهباء .

بعد هذه الجولة ، أو الجولات المتعددة ـ ونحن نوجز الكلام عنها ايجازا ـ استقام مصطفى محمود على جادته الروحية .. ابتعد عن المادة تماما صار كل جديد يكتبه ينقض قديما كان قد كتبه ذات يوم ! . وكل فكرة يعلنها تزيح فكرة قديمة له عن مكانها فى عقله .. ودخل فى دين الله مؤمنا مخلصا حقا فى ايمانه .

وانقطعت رواياته « العلمية » العجيبة التى كان لا يكتب مثلها أحـد غيره فى مصر .. كروايتيه « العنكبـوت » و « رجل تحت الصفر » اللتين أشرنا اليهما ، ورواية « مغامرة فضاء » التى ادارها حول جريمة تقع بطريقة علمية لا يفهمها أهل عصرنا لان هذه الجريمة ستقع بعد مائة عام !.

وانتهت الأزمة الفكرية التى أورثته اياها كتب المادة، ووضع على صدره او على راسه شعار الورع والتقوى ، وانطلق لسانه بالوعظ والارشاد ، ولكن بلغة فنان قديم وفيلسوف هجر الفلسـفة ، وكاتب بقيت له رشـاقة تعبيره ، وبراعة وصوله الى القلوب التى فى الصدور .. وان تغيرت المعانى والكلمات .

ومصطفى محمود المتدين صـاحب المجموعة الكبيرة الجـديدة من الكتب الدينية ، لا ينكر ضرورة المعـرفة بالتاريخ والتطور والطبيعة الانسانية والمجتمع وعجـائب الكون ، ولكنه يوجب أن يكون السبيل الى المعرفة هو الدين أو بالدين ، فلا معرفة لشىء فى الارض والسماء بدونه .. وهو يجادل عن رأيه هذا بكل قوة وثبات .. ويحتفظ فى مرحلته الجديدة بجمال خياله كما كان قديما، وبنفاذ بصيرته ، ودقة شعوره ، وخلابة بيانه ، ويقوم بسياحات فكرية مثيرة فى بحر الكون الواسع ، وفوق متن التاريخ الاجتماعى كله ، ويقفز من زحل الى المريخ الى المشترى الى القمر ، عائدا الى الارض .

ومصطفى محمود هو كاتب « شلة الانس » وصـاحب التعبيرات العامية البلدية المغرقة فى عاميتها ، وكاتب « الافيون الاصفر » يصف به الكتب القديمة الصفراء ، وكاتب « لغز الحياة » الذى سلم فيه بالمقولات المادية..

وكاتب « اعترفوا لي » الصاخب بالاعترافات .. و « ٤٥ مشكلة حب » .. الى آخر تلك القائمة الطويلة من كتب ما قبل استقامته على جادته الدينية وايغاله فيها مطمئنا مرتاحا ، بكل اصرار وثقة ، فقد اتخذ القرار النهائي .

ولكن تلك بدايته الفكرية التى لم تمنعه بعدها أن يكتب عن « الله » و « القرآن » و « محمد » وأن يحج ويعتمر ، ويتخذ من الكتاب والسنة هداية وسبيلا الى الدنيا والآخرة ، والا يبالى شيئا بعد ذلك .

وقد صمت عنه الكاتبون تقريبا بعد تحوله هذا ، فلماذا ؟! . ان دراسة تحول مصطفى محمود من كاتب « ٤٥ مشكلة حب » و « اعترفوا لى » الى كاتب دينى ذى عقيدة دينية متينة لتستحق ان ينهض بها غير واحد ممن يرصدون التطورات الفكرية فى مصر خلال الحقبة الاخيرة ، وما دامت الامانة العلمية هى شعار هؤلاء فيما يكتبون عن التطورات والتيارات الفكرية ، فان الفائدة محققة فيما نرجو .. اما السكوت فهو نقص فى البحث أو صمت عن البحث .. ولا مبالاة ! .

لحوم للمفكرين

ليس صحيحا ان الخبراء العالميين فى التغذية لم يجدوا حتى الآن حلا نهائيا حاسما لمشكلة نقص اللحوم ، فان هذا الحل السعيد الموفق موجود بكل تفاصيله عند المستشار محمد كامل البهنساوى عضو الجمعية النباتية العالمية التى تتخذ لها مقرا رئيسيا فى لندن .

والمستشار البهنساوى متصوف وأديب .. عاش فى المحاكم عشرات السنين يقضى بين الناس بالعدل ، ثم رأى ان عدالة المحاكم وحدها ناقصة لا تكفى ، وان العدالة الانسانية المثلى لابد أن تشمل برحمتها الطير والحيوان والسمك والزواحف وكل جسد صغير أو جسد كبير فى الارض والماء والهواء .

وهو يرى ان تطبيق هذه العدالة الانسانية التامة ، سوف يؤتى ثمرته فى النهاية فيتمخض عن معجزة الحل الجذرى لمشكلة اللحوم فى العالم كله ، وعندئذ يرتاح خبراء التغذية العالميون والمحليون ، وتقوم بين الانسان والحيوان صداقة دائمة ! .

والحقيقة ان كتاب الاستاذ البهنساوى ، وعنوانه « النباتية والنباتيون » يصادف وقتا دقيقا فى العالم كله ، تحتاج فيه مشكلة اللحوم الى من يدافع فيها عن الطرف الذى لا يتكلم أبدا ، مع أنه صاحب اللحم ، بل هو ذاته اللحم الذى صنع المشكلة المستعصية ! .

وقد تكلم الانسان طويلا بانانيته المعروفة : « أريد لحما .. هاتوا مزيدا من اللحم .. » .. فلابد من محام مفوه يدافع عن اللحم المغلوب على أمره ، وينصفه من غرمائه الاقوياء الكثيرين . وقد تطوع المستشار البهنساوى ـ وهو القاضى العريق ـ فكان هو المحامى المنشود .

واذا لم تكن على معرفة كافية بتاريخ كفاحه فى هذا المضمار ، فنحن نوجزه لك نقلا عن كتابه .

فى الثامنة من عمره بدأت قصته مع اللحوم .. رأى سكينا تمر على عنق دجاجة صغيرة فى منزله فتصبغ بدمها الارض .. ثم قدموها فى الغداء فلم يأكل منها .. وبعد سنة أخرى أو سنتين فى منزله مصرع خروف العيد بسكين جزار غليظ اليدين ، فأضرب عن أكل اللحم اضرابا تاما ، برغم ما كان يلقاه من التشجيع على اكله والتحذير من مقاطعته !.

ولما أصبح فى الخامسة عشرة أعلن نفسه نباتيا فكان النباتى الوحيد فى أسرته ، ثم كرس نفسه نباتيا الى الابد واعتنق آراء النباتيين العرب والاجانب .. وظفر بالسعادة الكبرى حين زار لندن ـ وقد كبر وأصبح قاضيا ـ فالتقى هنــاك بزعماء الجمعية النباتية وتحدث اليهم وتحدثوا اليه ، وأصبح عضوا رسميا فى الجمعية .. ومازال منذ ذلك العهد شديد الاخلاص للنباتية ، وثيق الصلة باخوانه النباتيين .. وقد تبلور المذهب النباتى لديه فى ثلاثة مبادىء : الامتناع عن اللحم .. الامتناع عن الخمر « مع أن أصلها نباتى » .. الحرص على الألعاب الرياضية ...

وللمستشار البهنساوى فى النباتية أساتذة كثيرون من جميع العصور والقوميات والاديان . ولكن أعظمهم اثرا فى

نفسه اثنان : أبو العلاء المعرى ، ومحمد فريد وجدى .

والرجلان كلاهما فيلسوف أديب شاعر باحث في الدين .. وقد رحما الحيوان فامتنعا عن اكل لحمه لاسباب فلسفية وادبية وشاعرية ونفسية ، الى جانب الاسباب الفسيولوجية التي لابد منها بطبيعة الحال .. ولم يكن في عصر المعرى منذ تسعمائة سنة ، ولا في عصر فريد وجدي منذ خمسين سنة ، ما نسميه الآن مشكلة اللحوم .. كانت اللحوم في عصر هذا وذاك اكثر من آكليها .

وقد مشى البهنساوى فى آثار المعري ووجدي لاسباب نفسية طفولية وجدت عندهما تبريرها الفلسفى .. وهكذا جاء كتابه « النباتية والنباتيون » مرافعة فلسفية امام محكمة آكلي اللحوم الحيوانية .. وهي محكمة لا ترحم ولا تبالي بالمرافعات الفلسفية !.

مع ذلك فان هذه المحكمة لو اصغت قليلا لوجدت في كلامه ما عسى أن تقتنع به .. فهو لا يعرض عليها الامتناع عن اللحم لكي تموت جوعا ، بل لكي تأكل طيبات كثيرة انبتها الله فى الارض كاللوز والبندق والفاكهة ، وقد « اثبت التحليل الكيميائى أن اللوز والبندق يحويان من المواد المغذية ثلاثة أضعاف ما يوجد فى احسن لحوم البقر والغنم » .. و « أثبتت التجارب ايضا أن الانسان يمكنه أن يحيا على البندق بمفرده ، لان المادة الزيتية الحلوة الموجودة فيه تمنح حرارة وقوة وتقاوم فى الدم . واكثر من ذلك فهي سريعة الهضم لا تحتاج لجهد كبير في المعدة والامعاء ، وتقوى من عضلاته ولا تكسبه أى تشحم في الجهات القابلة للسمنة » .. و « كذلك التفاح

والكمثرى والفواكه ذات البذور الاخرى » .. هكذا قال ..

فالانسان لم يخلق ليكون من اكلة اللحوم ، وانما خلق ليكون نباتيا يأكل اللوز والبندق والتفاح .. « ويؤكد الدكتور كلين الالماني أن دم القرود الراقية هو الذى يشابه فقط دم الانسان فى تكوينه ، وعلى ذلك اذا كان لنا ان نأكل لحما فلا يكون الا لحوم تلك القرود

ولكن من ذا الذى يترك لحم الدجاج والديك الرومى ويأكل لحم القرود ؟! .

بعد هذه الدعوة الحارة الى أكل التفاح واللوز والبندق والاضراب تماما عن أكل اللحوم ، يتساءل الاستاذ البهنساوى وقد وصل الى مفترق الطرق الفلسفية فى موضوعه :

ـ أى حق للانسان فى قتل الحيوانات ؟! ..

والجواب :

ـ لا حق له فى قتلها ، فضلا عن اكلها ..

وهذا جواب اخلاقى فلسفى لا قانونى بطبيعة الحال، ولو وقف بين يدى المستشار البهنساوى احد جزارى « المذبح » متهما بقتل مائة خروف وعجل وماعزة فى يوم واحد ، لاضطر الى تبرئته فورا ، مع أنه يود أن يحكم عليه بالاعدام !.

وتلك هى القضية التى تعذب ضمير المستشار : القانون مع القتلة .. فما العمل ؟!.

ان المستشار يحب القانون ويحب المذهب النباتى ، ولا سبيل الى شنق قتلة الحيوان ، فلا مناص اذن من ان يتجه بالحكمة والموعظة الحسنة الى كل من يأكل اللحم :

« لماذا تحاول أن تلتذ بأكل اللحم مع أنه يقوى فينا العواطف الحقيرة والآمال الصغيرة ، ويهيج كثيرا فى لذاتنا التى تفقدنا كثيرا من القوى الطبيعية التى يجب أن تقف عند حد » .

واخشى أن تكون هذه الكلمات أقوى حافز لأكل اللحم، حتى لمن لا يأكله بانتظام .. ويبدو أن الداعية النباتى المتحمس قد كتبها فى غمرة حماسته وهو غير متنبه الى ما تحمله من تحريض على أكل اللحم بأوفر الكميات وفى كل الاوقات ! .

الا أن هذا الخطأ فى الدعوة الى مقاطعة اللحم يذوب فى بحر من الحقائق العلمية والمواقف الاخلاقية والبيانات الاقتصادية والطبية التى تحبذ مقاطعة اللحم والاكتفاء بما تنبته الارض من ألوان الفاكهة واليامیش ، وما تجود به الحيوانات الاليفة من الالبان .. هذا خير للانسان من عمليات القتل اليومى التى يقترفها طلبا للحم الحيوان .. فليترك الناس هذه الحيوانات العجماء المسكينة فى عالمها الكبير المليء بالافكار الغامضة والآلام الصامتة العزلاء !.

الحقيقة ان الكتاب غزير المادة ، يسلك كل طريق فى الدعوة الى النباتية حتى ليصورها أملا للبشرية فى الانتصار على الامراض الخطيرة كالسرطان وتصلب الاوعية الدموية، وحل مشكلة الجوع وكثرة النسل وسوء الصحة فى البلدان الزراعية الفقيرة الغاصة بالسكان !.

ولكن الباعث الاخلاقى والفلسفى يبدو وراء كل صفحة فى الكتاب ، قبل جميع البواعث الاخرى التى تراكمت فى وجدان المؤلف وعقله وجسده من أيام الدجاجة المذبوحة فى المطبخ الى اليوم .

وصورة المؤلف تتراءى وراء سطوره كأنها نسخة جديدة من صورة أبى العلاء المعرى التى فاتت عصر الكاميرا ، مضافا اليها ملامح من صورة المرحوم محمد فريد وجدى النباتى الفيلسوف الذى تتلمذ عليه العقاد فى الادب والفلسفة وتتلمذ عليه البهنساوى فى الفلسفة والادب والنباتية .

ومهما يكن عطفك على الباعث الاخلاقى للمؤلف فان ثمة حقائق لابد أن تفكر فيها .. فماذا يحدث مثلا اذا أتاح التطور العلمى للانسان أن يستغنى عن أكل لحوم الدواجن والحيوانات المستأنسة ؟!.

لا شك أنه سوف يستغنى عن خدماتها ويكف عن تغذيتها وحمايتها فيكون مصيرها الانقراض .. فكأنما الذبح خير للطير والحيوان لانه يمنحه فرصة الحياة ولو بعض الوقت .. أما استغناء الانسان تماما عن اللحوم فعاقبته زوال الحيوان والطير من الارض ، وتغدو المسألة عندئذ « ابادة جنس » تقتضى تدخل الامم المتحدة !.

وفى مجاعات القرون الخالية أكل الناس القطط والفيران والكلاب ، بل أكلوا أنفسهم وسجل التاريخ أكل الانسان المتحضر للانسان المتحضر فى المدن الكبرى .

ولعل الناس يمتنعون عن أكل الحيوان عندما تتسع فى المستقبل تطبيقات العلوم وبخاصة الكيمياء ، فيغدو اللحم طعاما مستقذرا الى جانب الطعام النظيف الجيد الذى سوف تصنعه مطابخ الكيمياء .. ولن تكون البواعث الاخلاقية عندئذ هى السبب وراء هذا التطور فى موقف الانسان من لحم الحيوان ، لان الكيمياء المتطورة الجبارة سوف تكون هى السبب !.

فالدعوة الى عدم أكل اللحوم لا تنجح بالحكمة والموعظة،

وانما بتطور الصناعة والزراعة والعلوم وما يترتب على ذلك من تطور المجتمع والناس .. ولكن الانقراض هو الثمن الذى سوف تدفعه الحيوانات والطيور لان الانسان عندمايستغنىعن لحمها لن يستبقىمنها الانماذجللدراسة والزينة .. ولن يتاح للحيوان والطير امتلاك جزء من الارض والاستقلال به عن الانسان لان الانسان بقدرته قد ملك هذه الارض ولن يتنازل عن شبر منها للخراف والعجول والجمام والدجاج !.

وما دام التناقض أساسيا فى الوجود فان كل انسان وكل حيوان يأكل ويؤكل بطريقة من الطرق . وقد تكون الاخلاقيات الانسانية نوعا من الاحتجاج على التناقض الرهيب فى الوجود كله ، ولكن هذا الاحتجاج لن يغير العلاقات القائمة فى الكون منذ الازل .

ولن تقتنع وحوش الغابة بالاخلاقيات الانسانية ، وسيأكل الذئب النباتيين كما يأكل اللحوميين . وستظل السمكة الكبيرة ذئبا للسمكة الصغيرة ، وكل قوة تفترس نقيضها الضعيف .

وانه لاجدى للاخلاقيين أن يعظوا الانسان بالا يأكل أخاه الانسان .. يكفى كل الكفاية ان يأكل الانسان صديقه الحيوان !..

لقد لبث المعرى ــ استاذ البهنساوى ــ يعظ قومه بعدم قتل الطير والحيوان حتى وعظهم فى النهاية بعدم قتل البرغوث :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به

أبر من درهم تعطيه محتاجا

فماذا كان يفعل المعرى الذى يدعو الى اطلاق سراح البراغيث المقبوض عليها ، لو رأى الفرنج فى الغزوة الصليبية الاولى للشام يذبحون مائة ألف من سكان بلدته « المعرة » ؟ .. لقد مات المعرى قبل هذه المذبحة بزمن قصير ، ولو رآها لعلم أن القبض على البراغيث ليس بالقضية ذات الاهمية القصوى الى جانب قضية مائة ألف من سكان المعرة ذبحهم الغزاة بالسيف !.

والقضية فى عصرنا ـ كما كانت فى عصر المعرى ـ هى أن الانسان هو المذبوح فوق الارض ، وأن الخروف يفضل أن يذبح ويعلق سليخا فى دكان الجزار ، على أن يذبح ويسلخ فى فلسطين أو افريقيا أو فيتنام !.

أنيس منصور
وبقايا كل شيء

« ان حياتنا كقطار الصعيد .. ونحن أشولة ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق . فلا يدرى بنا أحد ، والقطار يمشي » .

هذه الكلمات التي ترقص ببراعة فوق الورق ، كتبها انيس منصور فى مقالة قصيرة من مقالات كتابه الذى جعل عنوانه « بقايا كل شيء » .

فى هذا الكتاب الصغير جمع أنيس منصور ما نشره من الصور الادبية والمقالات والخواطر والحكايات والقصص القصيرة ، وهى كلها تعبر عن افكاره فى مرحلة معينة يحاول أنيس فى هذا الكتاب ان يتخطاها .

وككل فنان يحب فنه ، يريد انيس أن يعرض على قرائه كل أفكاره السابقة ، فى الوقت الذى بدأ فيه يعرض عليهم أفكاره الجديدة .

انه لم يقطع صلته بهموم عقله الكبرى المتعلقة بالحياة والكون .. فما زال يحمل تبعاتها على كتفيه كأنه « العاشق الوحيد » الذى قال الشاعر على لسانه :

أأنا العاشق الوحيد لتلتقى
تبعات الهوى على كتفيا ؟

وانه ليخيل اليك اذا أنعمت النظر فى كتابات أنيس منصور انه انتدب نفسه للتفكير نيابة عن الجنس البشرى كله فى معضلات الحياة والكون .

ولو جاء أنيس منصور قبل زمانه لرأيناه يتحول ان ينتدب نفسه للتفكير عن البشرية كلها ، لا لمجرد التفكير نيابة عنها !.

واذن لرأيناه عندئذ مصلوبا على جذع نخلة ، أو مشنوقا على باب حصن قديم من حصون سلاطين القرون الوسطى ، أو اباطرة القرون الاولى .

ولكن أنيس منصور — لحسن حظه — جاء فى عصرنا ، فلم يتح له الا التفكير .. دون التفكير .. غير أن جوهر المعضلة لم يتبدل ، ولهذا تبدو افكاره وكأنها مصلوبة أو مشنوقة !.

و « عشماوى » الذى يشنق افكار أنيس منصور ، هو شخص رهيب اسمه أنيس منصور ، ولكنه لا يشنقها غراما بشنقها وازهاق انفاسها ، بل تلبية لاوامر لا نقض لها ولا ابرام تصدر عن قوة قاهرة تسللت الى عقله ، بل الى كيانه كله ، وأصبحت هى الآمرة الناهية ، ذات السلطة المطلقة .

كيف حدث ذلك ومتى ؟ ..

حدث ذلك عندما التقى انيس بالحياة وجها لوجه ، وهو صبى صغير فقير قد اعتزل دنيا الناس ، وعاش فى دنيا الكتب .

وفى دنيا الكتب الواسعة اقتات كل الافكار ، ولكنه استطاب الافكار المتشائمة ، وعقد نسبا بينه وبين الافكار التى تخرجه من وحشة الحياة الواقعية الضيقة ، الى رحاب الكون المطلق .

وعجزا عن حل قضايا الحياة اليومية ، هرب انيس الى قضايا الكون .. وانطلق يفكر فى الموت وبطلان الحياة ، ووجود الانسان ذاته ، واخفاقه المحتوم ، عندما تتلاقى

مصائر الناس جميعا فى النهاية ، ويموت جالينوس الطبيب العلامة ، كما يموت راعى الاغنام الذى لم يتعلم حرفا واحدا من الطب !!

العزلة جعلت من أنيس متصوفا بطريقته الخاصة ، لم يلبس الصوف ولم يعتكف فى خانقاه السلطان ، ولم ينظم الشعر على طريقة ابن الفارض ، أو طريقة أبى العتاهية .. ولكنه امتلأ بخيبة الامل المريرة التى جعلت أبا العتاهية يقول :

الناس في غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

الا أن انيس منصور وجد عالم الفلسفة الاوربية أرحب بكثير من عالم التأملات الذى عاش فيه المتصوفة العرب القدماء ، فلم يلبث أن ألقى بنفسه فيه ، وأصبح فيلسوفا .

وفلسفة أنيس بسيطة ..

صحيح أنها معقدة فى تفاصيلها وتهاويلها واصطلاحاتها الكثيرة .. ولكن جوهرها بسيط جدا ، يمكن شرحه فى كلمتين : الدنيا فانية !!

دنياك أيها المليونير فانية مثل دنيا المفلس البائس النائم فوق رصيف عمارتك !

دنياك أيها البطل الرياضى القوى فانية مثل دنيا المريض المنهوك الذى يسقط اعياء من اقل حركة !.

دنياك أيتها الحسناء الفاتنة المعبودة من ملايين الرجال، مثل دنيا الحاجة التى عاشت ثمانين عاما وجلست تنتظر حسن الختام .

كل شىء باطل .. باطل الاباطيل .. أنت فى المصير مثل غيرك .. والدنيا فانية !

هذه الافكار كلها قديمة ، جاءت فى كتب متعـددة ، بلغات متعددة ، وناقشتها الاديان ، وتناقلتها الاجيال ، حتى وصلت الى الفلاسفة الذين نقشوها فى الكتب التى حشا بها أنيس دماغه فى صباه ..

وهو الان يحاول أن يحرر عقله وقلبه ويزيح عن صدره هذا الكابوس الثقيل .

ولكن المسألة ليست سهلة ..

فهذا الـكابوس ليس لعبا .. انه كابوس فلسـفى ذو جذور عميقة ، ولا يمكن اقتلاعه الا بثورة فلسفية .

وهذه الثورة الفلسفية ، كيف يمكن أن تتحقـق ، ما دامت الحياة فعلا ذات مصير واحـد هو الموت .. وما دامت الدنيا فعلا ـ كما يقول الناس ـ فانية !؟

الحقيقة .. انه لا يوجد حل لمسـألة الموت والمصير الواحد ، لا فى الفلسـفة المادية ، ولا فى الفلسـفة الغيبية .

الحل الوحيد ، هو أن يعيش الانسان ما دام حيا ، ويناضل فى سبيل حياة افضل للناس الذين يجمعهم المصير المشترك احياء وأمواتا .

هؤلاء التعساء الذين وصفهم انيس منصور بأنهم أشولة ومقاطف وسلال تتساقط على طول الطريق من قطـار الصعيد ..

صباح الخير ايها الملل

الملل عند أنيس منصور له معنى آخر غير المعنى الساذج الذي اعرفه انا وأنت .

فأنت وأنا نشعر بالملل من رتابة الحياة مثلا ، أو من تشابه برامج التليفزيون ، او من ركود مباريات كرة القدم ! .

وهذا النوع من الملل نابع من ملابسات الحياة اليومية لى ولك ولسائر الناس .. وهو موجود فى كل مكان وزمان ، وسيظل الانسان يعانيه ، بدرجات متفاوتة فى كل المجتمعات ، حتى فى المدينة الفاضلة التى تخيلها الباحثون عن حياة أفضل ! .

أما الملل الذى يعنيه أنيس منصور ، فهو الملل الفلسفى .

الملل من المأزق الخالد ، التوحد فى هذا الوجود ، والاخفاق الذى يجعل جميع الاعمال الانسانية متساوية فى المصير !

هذا هو الملل الذى يعنيه أنيس ، وليس معنى ذلك أنه يعانيه .

فهو يعنيه فلسفيا ، اما معاناته فتتعلق بظروف حياته الواقعية ، ولا اظن ان فى حياته الان ما يجعله يعانى الملل الفلسفى الذى يعنيه فى كتاباته !

فى الماضى ، كانت حياة أنيس شاقة مؤلمة ، نشأ ويداه فارغتان من كل شيء .

وعندما التحق بقسم الفلسفة فى كلية الاداب ، كان بعض أساتذة هذا القسم يتكلمون كثيرا عن نيتشه

وهايدجر .. وفى النهاية وصلوا الى جان بول سارتر .

ان أنيس منصور الذى نشأ فيما يشبه ظروف البروليتاريا ، من انقطاع اسباب التملك ، بل واسباب الحياة نفسها ، لم يلتق بفلسفة تعبر عن واقع هذا الحال ، وترسم طريق الخلاص منه ، وانما التقى بفلسفة تنوح على مصير الانسان ، وتشيعه باليأس القاتل الى مقره الابدى فى ظلمات الاخفاق !

فمن الذى يلومه وهو ماض فى طريقه الفلسفى الذى وجده ؟!

صحيح أنه نجح فى حياته .. اصبح كاتبا مشهورا وصاحب اسلوب فى الكتابة يقل نظيره جمالا واشراقا وحيوية ولطفا ، واصبح رئيسا للتحرير ، وعضوا فى لجان فنية وعلمية ونجما تليفزيونيا واذاعيا ، وفتى محبوبا الخ .

ولكن هذا كله دواء لملل الحياة اليومية ، للملل الفلسفي العميق الذى أصيب انيس بجرثومته فى قسم الفلسفة بكلية الاداب ، وهو شاب صغير يرى الحياة عابسة .

والحياة تتسع للملل الفلسفى .

ان الكاتب الذى يعبر عن ملله الفلسفى بصراحة ، افضل من الكاتب الذى يضع على رأسه عمامة الورع والتقوى ، ويعظ الناس فى مضار هذا الاتجاه الفلسفى !

وانيس منصور فى كتابه « وداعا أيها الملل » يحاول أن ينقد أفكاره عن الملل !

إنه يعلن فى مقدمة كتابه انه وجد دواء شافيا للملل !. وجد .. « الحب » !

الحب جعله يحب الاشياء الكريهة الشريرة ويحتملها ويتقبلها .

الحب جعله لا يفقد صبره ازاء الاشياء الكثيرة التى لا اسم لها ولا معنى .

الحب جعله يحب النجوم البعيدة الهائلة ، والقوى الصامتة المخيفة فى هذا الكون .

انه يحب ، فهو اذن لن يصاب بالملل !

ولكن ...

ـ هل الحب وحده يكفى ؟!.

ـ ربما !..

هكذا يسأل أنيس منصور نفسه ، ثم يجيب بنفسه عن السؤال ..

وجوابه لا يؤكد شيئا ولا ينفى شيئا .. ومعناه أن « الحب » الذى يقدمه أنيس دواء للملل ، ليس فى الحقيقة دواء ، بل مجرد ماء ملون فى زجاجة !

فماذا اذن ؟.. أما من دواء للملل ؟!

يبدو انه لا علاج الا بنسف الاساس الفلسفى الذى يقوم عليه الملل ، فان الملل هنا مصدره فكرة الاخفاق وتساوى مصائر الاعمال .

الملل هنا مصدره اليقين بأن البشر محكوم عليهم باليأس .. بالحرية .. بالتوحد فى هذا الكون ذو النجوم البعيدة الهائلة ، والقوى الصامتة المخيفة !

وبدون تفجير الديناميت فى هذا الاساس الفلسفى ، لا يمكن أن يشعر أنيس بالشفاء من الملل ، مهما حاول فى حياته اليومية أن يشعر بأنه لم يعد مريضا بالملل !.

انه الان يرفع شعار « الحب » فى حربه ضد الملل !
لا باس !.
فلنطبق هذا الشعار على حب الرجل للمرأة ..
عندئذ نجد أن الحب غير ممكن فى ظل يقين الرجل بأنه مهجور ووحيد ولا شيء خارج ذاته يتشبث به ؟!
كيف والحال كذلك ، يتعلق الرجل بالمرأة ؟. كيف يحبها ؟!
ولنفرض أنه أحبها وأراد الزواج منها ، فكيف يتسنى له ذلك ، وهو محكوم عليه بالحرية .. وكل قيد على حريته هو التزام ومسئولية وهم ثقيل فى هذه الحياة التى يتساوى فيها مصير النملة ومصير الفيل ؟!
الحقيقة ان انيس منصور حين نقش على غلاف كتابه « وداعا أيها الملل » لم يكن يعنى تماما ما يقول ..
لعله كان يريد أن يقول : « صباح الخير أيها الملل » .. أو « الى اللقاء أيها الملل » !
ومقالات انيس منصور فى هذا الكتاب ، ليست بنات أفكاره وحده ، بل هى أيضا بنات أفكار الملل .
« حتى كلامى هذا ممل » !..
وهذا لم أقله أنا ، بل قاله انيس منصور فى مقالة من كتابه عنوانها « الحياة هى الملل » !.

سقوط الحائط ...

هتف أنيس منصور على غلاف كتابه بأعلى صوته : يسقط الحائط الرابع .. والحقيقة أنه معذور فى هذا الهتاف ، لان كتابه هذا يشبه مظاهرة ضخمة من الافكار والآراء ، تريد أن تسمع صوتها للناس .

ويقول أنيس فى احدى مقالات كتابه ان المرحوم الاستاذ العقاد كان جادا طول عمره .. « ولذلك فهو لا يتناول اى موضوع بتهويش او تهريج او خداع .. انه لا يخدع القارىء لان الخداع ليس من طبعه ، فهو صريح وهو واضح وقد عاش طول عمره يصارح نفسه ، ويوضح لغيره .. كل ذلك فى بساطة وفى اصرار » .

وهذه الكلمات تنطبق على أنيس منصور نفسه ، برغم ما يبدو من تناقضه معها أحيانا ..

ولعله كان يرى فى العقاد صورة مكبرة له ، فثابر على حضور ندواته فى داره بمصر الجديدة عشرين عاما ، بدأت عندما كان أنيس تلميذا صغيرا فى كلية الاداب وانتهت وانيس منصور كاتب مشهور .

ان أنيس منصور ظل فترة غير قصيرة متهما بالتهويش والتهريج والخداع والتلاعب بالافكار المبهمة .

وما زال الرأى فيه كذلك حتى اليوم ، عند بعض الناس .. ولكنهم قليلون .

فمنذ أصدر كتابه « وداعا أيها الملل » وهو يدور حول نفسه ، غير قادر على الخروج من دائرته الفكرية .

وهو في كتابه الكبير « يسقط الحائط الرابع » يدور أيضا حول نفسه ، ويتشبث بأطراف افكاره ، وكأنه طفل تنتزعه الايدي الغريبة من أبويه .

هكذا يقال اليوم عن أنيس منصور ، وهكذا سوف يقال عنه غدا وبعد غد .. ما دام هنا وهناك نقاد من مختلف الاتجاهات .

الا أن النقاد الذين يفهمون أنيس منصور ويقدرونه يكثر عددهم بمرور الايام ، بينما يقل عدد النقاد الذين يلقون على أفكاره نظرة سريعة غاضبة !.

فمنذ البداية الاولى كان أنيس منصور مثقفا من أبناء الشعب .. لم يتعلق في نشأته الفكرية بأفكار طبقة عليا ، ولا كتب شيئا يمجد به الفئات الممتازة اجتماعيا واقتصاديا ..

كان شعوره دائما نحو هذه الفئات هو ما يسميه « القرف » . بالمعنى العامي لهذه الكلمة العربية .. أي الاشمئزاز والنفور ورفض التعلق بهذه الفئات .

فالشيء الذى كان يبهر أنيس منصور ، ومازال يبهره ، هو الافكار الرائعة ، والكلمات الرائعة التي تصاغ بها هذه الافكار .

لم يكن في الماضي يجد أفكارا رائعة عند الطبقات المستغلة والرجعية ، بل كان يجد روعة الفكر في الفلسفة التي تلقى نظرة شاملة على الحياة الانسانية وعلى الكون الفسيح الذى يضطرب فيه الانسان .. نظرة الى ذات

الانسان ، والى ما هو خارج ذات الانسان ، فى وقت واحد .

ولان أنيس منصور نشأ فقيرا ، فى بيت فقير وبيئة فقيرة ، لم يستطع ان يبحث عن الافكار الرائعة الشاملة الا فى الكتب التى يتاح له الاطلاع عليها .

وجذبته دوامة الافكار حتى غرق فيها ، لانه قرا الكتب فى عزلة عن الناس وضجيج العالم الفسيح ، فاصبحت الكتب عالمه الشخصى ، يتقلب فيه ، مديرا ظهره للعالم الذى يتقلب فيه الناس .

من هذه العزلة مع الاوراق والكلمات ، انبثقت فردية انيس منصور ، وأخذت بيده طائعا او كارها الى مواقف فردية .

ولكنه فى مواقفه الفردية ، كان دائما مترفعا متوحدا كشجرة عنيدة فى صحراء واسعة جرداء .. لم يتعلق الا بأفكاره ، ولم يعرض على الناس غير هذه الافكار ، ولم يضع قلمه ولا فكره فى خدمة موكب صاحب ، بل وضع القلم والفكر دائما فى خدمة أشواقه الى معرفة ما لا سبيل الى معرفته من تعقيدات الحياة الانسانية والكون اللانهائى .

لهذا نجد كتابات انيس منصور فى جميع مراحل حياته ذات أساس فلسفى واضح .

كتاباته الاولى كانت مثقلة بفكرة الاخفاق الوجودية .

ومعنى الاخفاق هنا ، هو التساوى التام بين مصير الاعمال الطيبة ومصير الاعمال الرديئة .. فالسعى وراء هدف عظيم يساوي فى اخفاقه النهائى مخاصرة امرأة ، او معاقرة كأس ، أو الجلوس بلا عمل على الاطلاق .

الانسان مخلوق مهجور سواء كان هذا سعيدا أو تعيسا .. لا يجد خارج ذاته ما يتعلق به .. انه لا يتعلق حتى بما يبحث عنه فى الكون الفسيح .. فكل شىء كلاشىء ..

وهو محكوم عليه بالحرية والتوحد فى هذا العالم .. وكل قيد يدخل على حريته فهو التزام ومسئولية .

وعلى هذا الاساس الفلسفى رفض أنيس منصور فى بداية حياته الادبية والفكرية قبل بضعة عشر عاما كل التزام حيال الطبقات المنهارة التى كانت تسيطر على بلادنا .

لم يقف فى صف هذه الطبقات ولم يكتب دفاعا عن انهيارها ، بل التزم حيالها بعدم المبالاة ، ثم بالنفور والكراهية والقرف .

ولما قال الزمن كلمته الحاسمة فى أمر هذه الطبقات بدأ أنيس منصور يشعر بأن عبء « القرف » قد خف عن كاهله ، وبدأت نظرته الشاملة الثاقبة الى المجتمع والكون ، تهديه الى اشياء جديدة .

وفى كتابه الجديد يشرح هذه الرحلة الطويلة فى مقالة بديعة يقول فيها « لقد تحدثت عن الضياع الذى يهددنى، وكيف أننى انشغلت بنفسى عن العالم كله .. كيف حبست نفسى فى نفسى ، فى زنزانة هى أنا .. فكنت السجين والسجن والسجان معا .. وكيف اصطدمت بالناس لاننى لا أراهم ، لاننى اعمى باختيارى .. وقلت اننى مثل رواد الفضاء محبوس فى برميل من حديد يلف حول العالم .. والحقيقة هى أن الدنيا تلف وتدور ، واننى كنت جامدا فى مكانى ، وكل شىء جديد ، ويظهر من جديد ، لا أنا .. مللت كلامى .. مللت المعانى التى

تدور فى رأسى ، فكل ما فى يدى علب من ورق ملون ..
علب فارغة أرتبها واختارها وأبيعها وتبيعنى أيضا ..
مللت هذا كله .. لقدعانيت كثيرا ، ومعاناة الازمة فى
التى رفعتها الى مستوى التأزم الذى هو بداية التنوير
كما يضيء الفحم الاسود من شدة الاحتراق » !..

ولقد أضاء أنيس منصور من شدة احتراق افكاره .
واستطاع أخيرا أن يفهم نفسه ويفهم ما هو خارج
نفسه .. يفهم الحياة والمجتمع والكون ، قدر طاقة فهم
الانسان ، بلا ادعاء .

ولن يستطيع ناقد أن يكتب فى نقد أنيس ما كتبه
هو عن نفسه فى هذه السطور التى نقلناها عنه .. هذه
السطور التى يقدم فيها الى قرائه نقدا ذاتيا مؤثرا بالغ
الدقة والطلاوة .

لقد صبر أنيس منصور على مكاره الفلسفة حتى فتح
عينيه وادرك أن الفلسفة يمكن أن تكون مذهبا للعزلة ،
كما يمكن أن تكون دليلا هاديا الى العمل .

وقد « اختار » أنيس منصور ان يتخذ من الفلسفة
دليلا هاديا الى العمل وسط ملايين الناس ..

وفى هذا الكتاب يقول : « فى ظل الاستعمار والارهاب
والقمع تختفى الحرية مع الطعام ، لان الطبقة الحاكمة
ترى أن الحرية ترف .. وما دام أساس وجودنا هو
الاحتياج ، ومادام الاحتياج نفسه يخلق تمزقا فى المجتمع
.. هذا التمزق هو مبرر الصراع بين الطبقة التى لا تملك
الضرورى والطبقة التى تملك الكماليات ، فلابد أن نفسر
التاريخ تفسيرا طبقيا ، أو تفسيرا على أساس التناقض

والصراع .. ولا يمكن أن تتحقق حرية الانسان ما دامت الفوارق بين الطبقات واسعة » .

هكذا سقط الحائط الرابع أمام انيس منصور ، وانتهت العزلة بينه وبين الناس الذين احبوه دائما ، سواء كانوا مؤيدين لآرائه او معارضين .

ان أنيس منصور هو الكاتب الفنان الذي احبه كل قرائه ، وتعلق به الذين نثر عليهم الرياحين والذين قذفهم بالزجاجات الفارغة .

وكتابه « يسقط الحائط الرابع » اضافة هامة الى الفكر المصرى والعربى .

ومن المدهش أن رأسه المثقل بالافكار يعطينا افكارا غاية فى الخفة .. والسبب خفة يده فى الكتابة .

ان خفة يد أنيس منصور فى الكتابة تشبه خفة يد النشال فى ممارسة عمله بين جيوب الناس .

ولكن خفة يد أنيس ليس مرجعها انه ينشل أفكار الاخرين ، بل مرجعها انه ينشل افكاره الخاصة من رأسه .

وبما أن رأسه ثقيل بما يحتويه فان يده تضطر الى استعمال الخفة فى استخلاص الافكار الخفيفة من بين ركام الافكار ذات الوزن الثقيل !!

شجرة العائلة الوجودية

بعد غلاف الكتاب مباشرة ، تواجهك صفحة بيضاء يتمدد فيها طولا وعرضا رسم اخطبوط كبير .. لا تجزع فانه ليس أخطبوطا بالضبط ، وان كان يبدو كذلك .. تستطيع اذا تأملته جيدا أن تكتشف انه رسم شجرة عظيمة ذات فروع ضخمة كثيرة .

ليست هذه شجرة عائلة الاستاذ عبد المنعم الحفنى مؤلف كتاب « معنى الوجودية » .. وانما هى شجرة العائلة الوجودية ذات الحسب والنسب والجاه القديم.

واذا تتبعنا الشجرة من جذورها تحت الارض ، وجدناها تبدأ بالحكيم سقراط ، ومعه فى الجذور حكماء وفلاسفة آخرون ، تحتل اسماؤهم جذور الشجرة .. ما عدا جذرا واحدا أبيض خاليا من الاسماء .. لعل الذى رسم الشجرة خجل أن يكتب فوق هذا الجذر اسم أصحابه « السوفسطائيين » فقد كان السوفسطائيون من جذور الوجودية الاولى ، ولكن يبدو أن الوجودية الاخيرة لا تريد أن تعترف بهم فى « شجرة العيلة » !.

ثم نعلو فوق جذع الشجرة حتى نصل الى رجل اسمه كيركجارد ، وهو قريب من عصرنا نسبيا لانه ولد سنة ١٨١٣ ومات سنة ١٨٥٥ .

فاذا اقتربنا من عصرنا أكثر التقينا بالفيلسوف المجنون

نيتشه .. ثم نقترب أكثر وأكثر فنقابل المجنون الاخر .. هايدجر .. وكان من ثمراتهما مجنون عالمي ثالث اسمه أدولف هتلر .

لم يكن هتلر يفهم شيئا في الفلسفة الوجودية .. كان مجنونا فقط وصديقا لافكار نيتشه وهايدجر .

واخيرا .. نبلغ عصرنا ، فنسمع كلمات جان بول سارتر ، وهو جالس على أحد الفروع العليا .

هذه هي شجرة الحسب والنسب للاسرة الوجودية العريقة كما رسمها الاستاذ الحفني في صدر كتابه الذي خصصه للتعريف بأهم فلاسفة الوجودية وأهم افكارهم .

والتعريف بالوجودية وأبطالها ، ليس عملا جديدا في أدبنا العربي الحديث ، فقد غرق القارىء العربي في السنوات العشرين الاخيرة في سيل الكتب المترجمة والمؤلفة عن الوجودية .

أشهرها كتاب عنوانه « هذه هي الوجودية » صدر عن بيروت في الخمسينيات مترجما عن الفرنسية ..

ومثله في الشهرة حينذاك ، كتاب سارتر « الوجودية فلسفة انسانية » وكتاب جان كانابا في الرد على سارتر « الوجودية ليست فلسفة انسانية » .

وفي مصر لم يقصر الدكتور عبد الرحمن بدوي في التأليف عن الوجودية منذ عصر السوفسطائيين وسقراط الى عصرنا .. وكان له في الاربعينيات كتاب مشهور عن نيتشه ، قبل أن يسمع القارىء العربي شيئا عن الفلسفة الوجودية .

ولا ننسى الشذور الصحفية التي يكتبها انيس منصور حول الوجودية بطريقته المبتكرة ، فقد اسهمت هذه

الشذور فى عقد تعارف بين القارىء العربى والفلسفة الوجودية .

ثم يجىء عبد المنعم الحفنى فى الزمن الأخير ، فيرفع راية الوجودية خفاقة ، ويصبر على البلوى فى سبيلها كما صبر سقراط وكيركجارد على بلوى الزمان !

وللحفنى حوالى عشرين كتابا مؤلفا ومترجما فى الفلسفة الوجودية وقضاياها المعقدة والمفهومة .

وكتابه « معنى الوجودية » أصدره الحفنى وعلى غلافه رسم امرأة عارية مصلوبة على صليب اسود يحف به لون أحمر صارخ كلون الدم .

وفى الداخل - كما أسلفنا - شجرة الاسرة الوجودية التى تمتد أكثر من الفى سنة !!

والحقيقة أنها شجرة ضخمة جدا ، بجذورها وفروعها، ولكنها تفتقر الى الأوراق الخضراء ، تلقى على الارض ظلالا يفىء اليها الناس المتعبون ..

فمن سوء حظ شجرة الاسرة الوجودية ان الاستاذ الحفنى رسمها بلا أوراق .. مع انه لو تأمل اية شجرة لأية أسرة ، لوجد أسماء الاجداد والابناء والاحفاد مكتوبة على أوراق الشجرة لا على أغصانها الغليظة العارية !.

فنقترح عليه أن يستدرك هذا الخطأ الفادح ، فى الطبعة الثانية من كتابه فيرسم ورقة فى الشجرة لكل فيلسوف، من عهد سقراط الى عهد سارتر .، وبهذه الاوراق الكثيفة تصنع شجرة الوجودية ظلالا للجالسين تحتها فى صيف الفلسفة .

طبعا .. يريد الحفنى أن يستميلك الى الوجودية ، فكتابه يجيب عن سؤال تردده بينك وبين نفسك كلما

سمعت عن المفارقات التي يمارسها بعض الناس باسم الوجودية .

انك ربما سألت نفسك : ما هي هذه الوجودية التى يتحدثون عنها ؟!

والفصل الاول من كتاب الحفنى يجيب عن هذا السؤال الهام بالتفصيل .

فالوجودية - كما ينقل الحفنى عن سارتر - هى فلسفة متفائلة ، ومذهب للعمل ، ولا يمكن اتهامها باليأس الا عن سوء نية !!

واذن فان سارتر نفسه سيىء النية ، لانه أكد فى كتابه « الكينونة والعدم » ان الانسان مكتوب عليه اليأس ، لأنه يكتشف ان جميع الاعمال الانسانية تتساوى فى المصير ، فسيان أن تعاقر الخمر فى الحان ، أو تتصدى للنضال فى سبيل الشعب !!

والحفنى طبعا لا ينقل هذه الكلمات من كتاب الكينونة والعدم ، ومن حسن حظه أن هذا الكتاب يندر وجوده فى أيدى القراء المصريين ..

ومعروف أن سارتر لم يثبت على كثير من آرائه الوجودية ، ولابد أنه عاد فى الاونة الاخيرة عما قاله فى كتاب « الكينونة والعدم » فقد مضى على هذا الكتاب أكثر من عشرين عاما تغيرت فيها الدنيا .. وتغير سارتر تبعا للدنيا ، الا أن آراءه القديمة فى الوجودية كمذهب لليأس والاخفاق ، تبرر اتهام الناس لها باليأس ، بدون أية نية سيئة يضمرونها .. لان مصدر الاتهام هو سارتر نفسه .

والاستاذ الحفنى، يحاول أن يجعل من الوجودية تيارا

فكريا عربيا ، يتفق والميثاق الوطنى .. فالوجودية تفسر الحياة والكون تفسيرا شاملا كما تفسرها الماركسية مثلا.

واذا كان من الممكن النظر الى الماركسية فى ضوء الميثاق الوطنى ، فلماذا لا يكون ممكنا النظر الى الوجودية فى ضوء الميثاق الوطنى ، وبذلك يدخل الفكر الوجودى حياة الامة العربية كدليل للعمل ؟!

ولكن كيف ؟!

ان العرب يحاولون جمع شملهم من المحيط الى الخليج .. ولم تقع فى التاريخ القديم ولا الحديث محاولة لجمع شمل أمة طبقا للافكار الوجودية .. فهل تقع هذه المحاولة فى المستقبل ؟

يقول الاستاذ الحفنى فى معرض حديثه عن الفيلسوف الوجودى النازى هايدجر انه كان يرى فى الثورة الالمانية - ومعناها هنا الحزب النازى - تعبيرا عن مذهبه الفلسفى .. « فالايديولوجية الالمانية كما كان يمثلها هتلر كانت أيديولوجية خلاقة تكاد تستقى أصولها من كتاب هايدجر - الوجود والزمان - ويكاد هتلر ان يكون تجسيدا حيا للبطل المفرد عند هايدجر » .

هذا هو التطبيق العملى الوحيد لفرع من الوجودية.. والنتيجة : هتلر والحزب النازى والحرب العالمية الثانية وتمزق الامة الالمانية !

والاستاذ الحفنى يدير المناقشات فى كتابه كله حول الماركسية والوجودية .

وبما أن حروف كتابه عربية ، فكان الأجدى لقارئه الا يقتصر على الماركسية والوجودية ، لان النزاع بين هاتين الفلسفتين ، ليس هو الشغل الشاغل للامة العربية الان .

فليس مطروحا على الامة العربية الان ان تختار بين الماركسية والوجودية ولا يوجد ادنى دليل على ان الامة العربية ستواجه ذات يوم اختيارا من هذا القبيل .

ومع ذلك ، فالامة العربية متفتحة لكل الافكار ، تطالع كل شيء ، ولا تحجر على شيء .

وكتاب الحفنى عن الوجودية ، برغم انحيازه اليهـا انحيـازا متعنتا ، يسـهم فى تنوير القـارىء العربى فى الوجودية وقضاياها ، اذا طالعه بتأن وانتقاد .

صلاح عبدالصبور ..
والجرى بين الشعر والنثر

الكتاب عنوانه « أصوات العصر » .. ولكنك لا تسمع فيه صوت عصرنا وحده ، كما يوحى العنوان ، بل تسمع أصداء عصور طويلة عاشتها مجتمعات كثيرة من عهد اليونان والعرب القدماء ، الى عهد مارلين مونرو .. أى عهد أمريكا كبيرة أثرياء العالم الآن .

مؤلف الكتاب شاعر مجدد ، ترك التدريس واشتغل بالصحافة ، ليعيش على مقربة من البيئة الادبية ، لان الادب ما زال فى بلادنا يرتزق من بلاط صاحبة الجلالة ، كما كان الشعراء قديما يرتزقون من ساحات الخلفاء والملوك .

ولكن الاشتغال بالصحافة هو الشرك الذى يقع فيه الشعراء والادباء ، خادعين انفسهم أو مخدوعين بعوامل اغراء وفتنة كالسراب .. ثم تضطرهم دنياهم الى الاستسلام ، ولزوم المقام الشريف الذى دخلوا فى خدمته .

وبعد ذلك تتكسر ملكاتهم الادبية كحروف مطبعة اليد القديمة .. وقليل منهم من يستطيع حماية مواهبه الادبية من الغرق فى الطوفان .

وقريب من هذا ما حدث للشاعر صلاح عبد الصبور مؤلف كتاب « أصوات العصر » .

فكتابة مجموعة مقالات صحفية .. يغلب عليهـا الروح الادبى ، ولكنها مجرد مقالات صحفية ، كمعظم المقالات التى يكتبها أدباء جيلنا الآن .

والحقيقة ان صنعة الصحافة تبتعد عن صـــنعة الادب يوما بعد يوم .. فى الماضى كان الصحفيون عندنا هم ــ غالبا ــ ادباء .

ثم كان الادباء هم غالبية الكتاب اللامعين فى صحافتنا .. ثم اصبحت الصحافة خبرا وصورة ولهاثا متواصلا بين قارات الارض .

واليــوم .. يكتب الادباء القــلائل أدبهم فى الصحف والمجلات كموضوعات صحفية ، ويتقهقر الادب المحض الى مجلات قليلة جدا ، شبه مجهولة .

الا أن الكاتب المثقف يستطيع أن يكتب شيئا فيه روح، وله طعم ورائحة .

وهذا ما فعله عبد الصبور فى كتابه القيم « أصــوات العصر » .. جمع فيه أشتات مطالعاته فى الادب العربى والآداب الاجنبية .. كتب فيه عن المتنبى والمعرى وشوقى والمازنى وشيكسبير وديكنز وتشيكوف .. تحدث فيه عن المسرح والســـــينما والادب الوجودى .. عن جورج ابيض وجيمس دين وبريجيت باردو وفرانسواز ساجان، ومذاهب أخرى وشخصيات كثيرة .

كل ما قرأ عنه ، كتب عنه ، ليقرأه الناس . كل ما تأمله وفكر فيه ارسله على الورق ، بسهولة وايجاز .. ببساطة المتذوق ، لا بتعمق الناقد .. يكتب جملة بقلمه ، ويترجم جملة .. يؤلف سطرا ، ويستعير سطرا من كتاب .

وافكاره بجملتها ، تقدمية مستنيرة .. حتى فى موقفه

من العامية والفصحى ، لم يتعصب للعامية ، مع أنه تزعم سنوات طوالا فرقة من الشعراء الجدد ثارت على الشعر العربى ، وعلى لغته .. حتى خيل الى قارئيهم انهم دعاة لهجات عامية ، لفرط عامية اشعارهم ، وهبوط معناها ومبناها .

وبرغم الطابع الصحفى لمقالات عبد الصبور فى كتابه « أ صوات العصر » نستطيع ان نقول بغير حرج ان عبد الصبور — كاتبا — يبلغ من اقناعك وارضائك اكثر مما يبلغ بأشعاره .

فقد كانت اشعاره — فيما اتصور — مرحلته الاولى فى التعبير ، ثم تخطاها الى مرحلة التعبير بالنثر ، فأصبح أعرب بيانا ، بل أصبح فى النثر أشعر وأعلى فكرا منه فى الشعر ..

ان شعره التقليدى الذى التزم فيه الأوزان والقوافى ، لا يثقل فى الميزان أكثر مما يثقل شعر شاعر عادى من متوسطى شعراء عهد بنى أيوب ، أو شعراء الثلاثينيات من القرن العشرين .

فلهذا ثار على الأوزان والقوافى ، ظانا ان فى ثورته مهربا الى امكانات فى التعبير ، أرحب وأسهل .

ولو حاكمنا شعره التقليدى الى مقاييس الاقدمين الذين قالوا :

الشعراء فاعلمن : أربعه
فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر يثبت وسط المعمعه
وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفعه

.. لو حاكمناه الى هذه الارجوزة الخبيثة لكان من حقه ان يسمعه الناس ، لا أكثر ولا أقل .

الا أن الانصاف يقتضى ان انوه بأن هذا الرأى لا يقره المعجبون بشعر عبد الصبور من الجيل الجديد ، وهم كثيرون .. وهو بهم فرح فخور .

وهو فيما يكتب ناثرا لا شاعرا ، يجرى بقوة وذكاء وثقافة .. وليس الجرى فى هذا الميدان أمرا هينا .. انه لأشق كثيرا من الجرى فى ميدان الشعر الجديد ! .

حوار مع سارتر ورسل

الاول من نوعه فى أدبنا الحديث .. صغير الحجم ولكنه ذو أهمية أدبية وفكرية عالية .. لا يقدم لطفى الخولى فى هذا الكتاب حوارا تقليديا من قبيل الاحاديث الصحفية التى يلتقى عليها الصحفيون ونجوم السياسة والفكر والفن والادب ، وانما يروى لنا مساجلتين فكريتين غير مسبوقتين ، بينه وبين اثنين من أشهر المفكرين فى العالم فى أواخر الستينات ، أى بعد هزيمة ١٩٦٧

يبدو الكتاب من عنوانه « حوار مع برتراند رسل وسارتر » كأنه كلام متبادل مع السجاير والاقداح بين مؤلفه والفيلسوفين الشهرين ، ولكن الثلاثة أصدقاء ، والعمل من أجل السلام العالمى هو ميعادهم وملتقاهم من حين الى حين .. والصداقة بينهم تضفى على الكتاب جوه الفكرى والوجدانى الخاص ، وتدفع الحوار الى أبواب لا تحتبس عندها الألسنة وان احتبست بعض الافكار فى الصدور .

والمساجلة الفكرية التى يرويها الكتاب تشبه فى بعض فصولها الحرب السجال ، لان محورها الامة العربية ، وبخاصة قضية فلسطين ، وعلى الاخص قضية الايام

الستة الماثلة بنتائجهـا وتبعاتها الثقـال امام العـرب اجمعين .!

يقول لطفي الخولي : « ليس هناك بديل عن الحوار اذا أردت ان تكسب لقضيتك مناصرين ومتفهمين من وزن رسل وسارتر ، فان ايمانك بعدالة قضـيتك لا يكفى لكى يراها الآخـــرون عادلة .. ونحن نقع فى خطأ فادح اذا رفضنا الحوار مع الغير لمجرد أن هذا الغير قد اخذ فى يوم ما موقفا معاديا منا ، أو أن له رأيامسبقا بالنسبة لنا او لعدونا لا نقره عليه ، أو انه لا يتفهم قضيتنا على النحو المطابق مطابقة شاملة لفهمنا لها .. ان هذا الرفض ـ فوق أنه عاطفى لا عقلى ـ يعنى تأمين كسب العدو لهذا الغير من ناحية ، كما يعنى تقوقعنا وجمودنا عن الحركة من ناحية أخرى ، وبالتـــالى فهو غير علمي وغير ثورى معا » .

وهكذا ، جريا وراء الحوار مع « الغير » قضى لطفى الخولى يوما فى مقاطعة ويلز البريطانية يحاور برتراند رسل فى بيته الريفي المنعـزل .. ثم قضى يوما أو يومين ـ بعد عامين من لقائه مع راسل ـ يحاور جان بول سارتر فى بيته ـ ومعه صاحبته سيمون دى بوفوار ـ فى باريس .

كان حواره مع رسل قبل عدوان يونيو بسنتين ، وكان حواره مع سارتر بعد العدوان بأيام .. وفرق كبير بين رائحة البيت الريفى الذى يسـكنه راسـل ، والبيت الباريسى الذى يأوى اليه سارتر .. ليس الفرق بين رائحة الريف البريطانى ورائحـــة باريس ، بل الفرق بين رائحة رسل ورائحة سارتر .. أعنى الفـرق بين رائحة الفكر عند هذا الفيلسوف ، ورائحة الفكر عند ذاك .

فى بيت رسل تشعر انك حيال قطعة من تاريخ الشموخ الانساني كله .. شيخ حكيم صادق الضمير ، تتمثل فى حياته المديدة محاولة الانسان المستميتة لاقرار العدالة ، والتجرد من الهوى الى الغاية التى يسمع بها عجز الانسان .

وفى بيت سارتر تحس انك أمام فيض من الفكر والحيرة والرغبة فى المعرفة والعدالة ، ولكن رائحة الرياء تختلط برائحة البحث عن الحقيقة ، وخطرات الوساوس تزاحم موضوعية العقل ، وتتبرج المعانى الدميمة فى أثواب الالفاظ الجميلة ، وبعض المعانى الجميلة تمشي عارية .. اما الافاق الكونية العلوية المتوهجة في قشرة الدماغ وعلى سن القلم ، فانها تخبو يائسة كالجمرات الضئيلة المغلوبة على أمرها فى أطراف سجاير الفيلسوف !.

فى بيت رسل ، وحول أقداح الشاى ، والحديث طيب نقى كهواء الريف البريطانى ، قال رسل فى براءة :

ـ لماذا لا تحلون مشاكلكم مع اليهود سلميا ؟!.

ورد لطفى :

ـ ليس بيننا وبين اليهود مشاكل من اى نوع حتى يمكن القول بحلها سلميا أو عسكريا .

ارتسمت الدهشة ملء أخاديد الثلاثة والتسعين عاما ، على وجه الشيخ برتراند رسل ، وقال :

ـ كيف ؟.. الا تعادون اليهود وتتسلحون لادبادتهم ؟. الستم بصراحة معادين للسامية ؟!.

سؤال ساذج يدل على أن رسل الذى أحاط علما بالكثير ، لا يعرف من قضية العرب مع اسرائيل الا الزاوية الملفقة التى تبرزها الدعاية الصهيونية المحمومة .

وبطبيعة الحال بذل لطفي الخولي جهده في شرح قضية فلسطين وكيف أغار عليها اناس قادمون من خارجها واغتصبوها وطردوا أهلها وساموا الخسف والعذاب من بقي منهم .. حتى قال رسل في ذهول :

ـ هذا تصوير جديد للموقف .. كلام اسمعه لأول مرة .. ولكن ماذا عن اليهود في اسرائيل الآن بعد أن أقاموا وكونوا شعبا منذ عام ١٩٤٨ ؟.

قال لطفي :

ـ اذا كان هناك شعب يمكن أن « يفبرك » في سنوات قلائل على هذا النحو فان معنى ذلك أن نتشكك في التاريخ وقوانينه العلمية . لقد وفد وما زال يفد على فلسطين مهاجرون مغامرون من جميع انحاء العالم تلهبهم المشاعر العنصرية . هؤلاء لهم أوطان جاءوا منها . أما اليهود الفلسطينيون فلهم حق البقاء مع كل عرب فلسطين كمواطنين .

ومسح رسل وجهه براحته وقال :

ـ المشكلة معقدة !.

هذه هي خلاصة الحوار الطلى المتسم بالصدق الذى جرى قبل العدوان بعامين ، وبدا فيه رسل ـ صادقا بريئا ـ قليل الالمام بقضية فلسطين ومشكلة الامة العربية مع الغرباء الغاصبين .. ولكنه كان واضح الرغبة في معرفة الحقيقة ، وفي أي جانب تقف الحرية ، وفي أي جانب مضاد يقف جلادوها .

ان رسل الذى يرى ان الانسان يحيا بلقمة العيش ولقمة الحرية ، كان واضح العذر في موقفه ، ولكنه كان واضح الرغبة في تعديل موقفه بما يقتضيه كفاحه الطويل من أجل لقمة العيش ولقمة الحرية لكل الناس .

فماذا عن سارتر ؟! ••

منذ الكلمة الاولى فى الحوار ـ وقد جرى بعد أيام من حرب يونيو وما ارتكبه فيها جنود موشى ديان من فظائع بربرية شنعاء ـ كان سارتر يسبغ عطفه ورعايته على اطفال اسرائيل ونسائها ، كأنما الذين عصفت بهم جرائم الفتك والهتك هم أطفال اسرائيل ونساؤها ، لا أطفال العرب ونساؤهم ••

ولا جدال فى أن سارتر على حق فى ابداء عطفه على الاطفال والنساء ، وقد زعق قبل عشر سنوات فى كتابه المشهور « عارنا فى الجزائر » زعقته المدوية : « هل نستطيع ان نسمع صراخ طفل معذب بدون ان نشعر بالهول والارتعاد ؟! » ••

ولكن سارتر سمع ملء أذنيه الكبيرتين عشرات الالوف من الاطفال فى فلسطين والمناطق التى احتلتها اسرائيل ، فلم يشعر بالهول والارتعاد ، وانما شعر بتزايد حبه وولائه لاسرائيل ، وسجل هذا الحب والولاء فى بيانات عالمية مذيلة بامضائه !•

هذا الموقف المتناقض كان موضوع الحوار الذكى الشامل الذى اداره معه لطفى الخولى •• وكانت اجوبة سارتر ـ عند تعريتها من الفاظها ـ تنم عن تعاطف قلبى عميق مع اسرائيل •• حتى انه عندما ذكر ارتباط اسرائيل بالاستعمار الامريكى ابدى اسفه لهذا الارتباط الوثيق الذى لا غنى عنه لاسرائيل ، كأنما الطبيعى عند سارتر عدم ارتباط اسرائيل بالاستعمار ، وكأنه يشير من بعيد الى الاكذوبة الصهيونية التى تقول ان اسرائيل هى « منارة الشعوب » فى الشرق الاوسط •• وهو يرى بطبيعة الحال ان منارة الشعوب ينبغى ان تجتهد فى ستر

ارتباطها العضوى الذى لا انفصام له بالاستعمار العالمى ..
ومما له دلالة لا تدحض فى هذا المقام أن سارتر ـ بدون ان يتدبر كلامه ـ قال ان اثنى عشر مليون يهودى يقيمون خارج « وطنهم » .. أى انه يرى ان كل يهـــود العالم مواطنون اسرائيليون .. وهى وجهة نظر غلاة الصهيونيين الذين يحاول سارتر أن يقول أنه ليس واحدا منهم ..

ان الفرق بين رسل وسارتر ، هو ان رســـل لا يعرف الحقيقة ، أما سارتر فيعرفها حرفا حرفا ، ولكنه يواجهها بتجاهل العارف . والذى يطالع كتاب لطفى الخولى يدرك تماما أن سارتر لا يخفى عليه من القضية الفلسطينية شىء ، لانه كان دائما شديد الاهتمام بمعرفتهــــا بوصفه نصف يهودى ـ من ناحية مولده واصله ـ وبوصـفه ثلاثة ارباع صـــــهيونى على الاقل بحـــكم ولائه وعاطفته وموقفه .. وبياناته المذيلة بامضائه ! ..

وطوال الحوار الذى كان لطفى الخولى محصورا فيه بين جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار ، لم يدع ســـارتر حيلة من حيل ذكائه لم يلعب بها لاقناع « أصدقائه العرب » بأنه وان كان يؤيد اسرائيل ، لكنه يختلف مع قادتها فى جملة نقاط .. ولا فرق هنا بين ســارتر وأعضاء الوزارة الاسرائيلية ، لانهم مختلفون بعضـــــهم مع بعض ، بنفس الطريقة التى يختلف بها سارتر معهم ! .

قد يقال ان الاقرب الى الحـــكمة تغليب حسن الظـــن بسارتر ، ولسنا ضد تغـــليب حسن الظن ، لكن تاريخ سارتر لا يشجعنا ، وليته كان يشجعنا فمن مصلحة العرب ان يكسبوا ذوى المكانة الفكرية فى العالم أمثال سارتر .

ان سارتر « يحاكم » العدوان الامريكى فى فيتنام ، وهو

يكسب من وراء ذلك ولا يخسر ، لان قضـــية فيتنـــام المناضلة قضية نشيطة تحف بها عناية الرأى العام العالمي وحماسته ، وقد كان سارتر وما زال يؤيد دائما كل قضية يحتضنها الرأى العام العالمي ، وصورة ســـارتر هنا هي صورة الحريص على جذوة شهرته حتى لا تنطفىء ابدا •• فمن الحق ان فيتنام لن تخسر فى فرنسا شيئا ذا بال اذا لم يؤيدها سارتر ، أما سارتر فانه يخسر فى فرنسا شيئا كثيرا اذا لم يؤيد فيتنام ، وليست قضية فلسـطين ـ مع الاسف ـ كذلك ! ••

وكلنا نعرف ان سارتر هو أكثر « الفلاسفة » حيرة فى عصرنا ، وربما كان أكثرهم انتقـــالا من رأى الى رأى فلم يثبت الا على قليـــل من الاراء ، فى مقـــدمتها آراؤه الصهيونية ••

كان سارتر فى عهد الاحتلال النازى لفرنســا يبرر هذا الاحتلال من خلال مقولاته الفلسفية ، وقد ســـجل عليه كتابه الكبير « الكينونة والعدم » هذه المقولات المشبوهة •

وبعد الحرب العالمية الثانية انتقل ســـارتر فى خطوة واحدة من صفوف النازى الى صفوف اليانكى ، ووقف امام قادة حلف الاطلنطي يخطب ويتلقى تصفيقهم ••

وقد كان وما زال يزعم انه بفلسفته الوجـودية يمتلك ناصية الواقع المادى ، ولكن فلسفته أثبتت انها لا تصـــمد لاى احتكاك بواقع الحياة خارج الحلقات الفلسفية •

واذا كان الثوب الذى يرتديه الان هو ثوب المناضل فى سبيل الحرية والاشتراكية والسلام ، فما أهونه ثوبا اذا كان ثمنه كلاما فقط ، لا عملا وموقفا صحيحا يصمد لـكل التجارب •

ان جوهر فلسفة ســــارتر الوجودية يقوم على اساس فكرة الاخفاق التام لجميع البشر ، وتساوى مصاير أعمالهم جميعا ، فالسفاح الفاشستى مثل الداعية الاشــتراكى ، والارهابى الاسرائيلى الوالغ فى الدماء مثل المناضل العربى المدافع عن وطنه ..

معذرة .. فان الارهاب الاسرائيــلى هو الاقرب الى قلب جان بول سارتر .. وفكرة الاخفاق التام تجوز على جميع البشر ، الا على البشر المختارين فى اسرائيــل .. وهذا هو التعديل الوحيد الذى يسمح جان بول سارتر بادخاله على فلسفته الوجودية !

اما حواره مع لطفى الخــولى فقد كان ذكيا ممتعا من الطرفين ، ولكنه فى حصــاده ومحصــوله العملى يشبه « اللاشىء » الذى يتساءل عنه تلاميذ ســارتر قائلين فى تفلســف لا طائل تحته : « لماذا يوجــد شىء ، ولا يوجد اللاشىء ؟! » ..

وقد تردد العرب وتقاعسوا عشرات السنين حتى أصبح اللا شىء شيئا فوق أرض فلسطين .. فما العمل ؟!

البعض يفضلونها ناقصة

على الاقل هذا هو نصف الرواية التى شرع يكتبها الروائى المشهور المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله قبل وفاته ثم عاجله الموت قبل ان يكتب نصفها الاخر ، ودون ان يضع عنوانها ، فقد كان ـ رحمه الله ـ معتادا ان يضع العنوان بعد الفراغ من طقوس ميلاد الرواية ، كأنها طفل يتأنق أهله أو يتمهلون فى انتقاء اسمه فلما صدرت الرواية اخيرا سماها ناشروها « قصة لم تتم » ‥ ولو تمت كتابتها لكان من الممكن ـ بل من الارجح ـ ان تحمل هذا الاسم ذاته ، لانها تتعلق بالحرب بين العرب والصهيونيين ، أى برواية لم تتم فصولا ، وقد كان الستار مرفوعا عن مسرح هذه الرواية الطويلة الدامية عندما كتب عبد الحليم عبد الله قصته عنها أو نصف قصته ـ باعتبار عدد الصفحات ـ ومازال الستار مرفوعا ، والايام كلها متعلقة به مرفوعا ومنسدلا على السواء ! ‥

القصة التى لم تتم تدور حول انسان محارب ضاع فى حرب ١٩٦٧ ‥ ولو تمت القصة لاستمرت حتى نهايتها تدور حول هذا الانسان المحارب الباسل الذى ضاع فى الحرب أو ضيعته الحرب ‥ أو اضاع نفسه فى الحرب ٠

انتظرته زوجته منى المنشاوى الصحفية الكاتبة اللامعة العصرية الافكار والسلوك ، حتى انقضى عام ١٩٦٧ واوشك عام ١٩٦٨ ان ينقضى أيضا ‥ ثم جاءها من يقول لها :

ـ ان ما سمعته هو ان زوجك كان من الفرقة التى توغلت فى أرض فلسطين أول أيام القتال ، وانه بحكم الموقف كان فى نشوة النصر ٠ كان يدوس على أرض انت تعرفين قدرها ، لكنه فجأة سمع نداء الراديو يأمر بالرجوع ولم يطيعوا ، وتكرر النداء ، وكان لابد من الرجوع ‥ ونهره ضابط كان قائدا له : الا تسمع ‥ فاذا بصبرى ـ

زوج منى ـ يصاب بحـــالة هستيرية • رمى كل أوراقه وبعض ملابسه ، وأصبح فى حالة كأنها حـلم ، كمن يمشى وهو نائم •• ولما رجع ورجعـــوا الى مواقع مدفعيتنا فى الجنوب الغربى رأى جماعة بانتظارهم ، وبدأوا يتحركون نحو الشرق • لكن صـــبرى رفض ركوب العربة فحملوه ومشوا •• وما كادت الســـيارة تمضى بضعة كيلو مترات حتى ضربت فمات من مات واستأنف السير من اراد •

قالت منى المنشاوى للرجل الذى حدثها بهذه الكلمات :

ـ انا شخصيا لم استبعد انه موجود ؟ ••

ولم تنم طوال الليل • « كانت تطل على الحديقة الخلفية من نافذة الحمـــام حيث علقت فوطة كبيرة كان يحبهـا صبرى ، ووضعت قطع الصابون وشفرات حلاقة وفرشـة اسنان ومعجونا جديدا • واحضرت مع هذا علبة سـجاير من النوع الذى كان يدخنه ونفثت حلقـــاتها حول هـذه الموجودات حتى خيل اليها انها تسمع وقع اقدامه أو غطيط نومه فى حجرة النـــوم •• كانت تنظر من وراء الزجاج للعالم الخارجى ، وتدحـــرج الامل البائس الذى جاء به الليلة رسول • تدحـــرج هذا الامل من ركن الى ركن فى قلبها » !

هذا هو ـ باختصار ـ محـــور اخر رواية كتبها عبد الحليم عبد الله بعد سلسلة غير قصيرة من الروايات بدأها بجهد عظيم يستحق التقدير حقا من مشارف فن المنفلوطى ، وانهاها عند مشارف فن الرواية الحديثة بقصته هذه التى لم تتم •

وخلال هذه المسيرة الحافلة كتب روايته « لقيطة » التى ذاع صيتها حين فازت بالجـــائزة الاولى من مجمع اللغـــة

العربية قبل عشرين عاما ، ثم اتبعها برواياته الشهيرة : « بعد الغروب » و « شجرة اللباب » و « شمس الخريف » و « غصن الزيتون » و « من أجل ولدى » ·· الى « الباحث عن الحقيقة » ·· و « البيت الصامت » ·· ثم « للزمن بقية » والروايات الثلاث الاخيرة تمثل محاولاته الصادقة للخروج من صدفته القديمة التى استكنت فيها لؤلؤته طويلا · وقد نجحت هذه المحاولات نجاحا واضحا فى قصته الاخيرة التى لم يتح له القدر أن يستكمل بها نجاح محاولاته ويكتب لنفسه شهادة اتجاه جديد ــ أو اتجاه قوى النزعة الى الجديد ــ بالنسبة الى اتجاهه الماضى ، وان لم يكن جديدا كل الجدة بطبيعة الحال ، اذ قيس الى اتجاهات معاصريه المغامرين والرواد من الروائيين المصريين والعرب ، فضلا عن العالميين وأشباه العالميين

ان الرواية فى مصر والبلاد العربية تحولت الى شعر ورؤى ولمسات واقعية وميتافيزيقية وحواريات عاقلة ومجنونة ، بعد ان حفلت منذ بداية نشأتها بالاحداث والسرد التقليدى المنطقى والبناء الهندسى دورا فوق دور وحجرا فوق حجر ، ولبثت قائمة على هندستها هذه عدة أجيال ·

وليس هذا التحول فى الرواية المصرية والعربية معزولا عما ينتاب الرواية العالمية ، فالحقيقة انه يكاد يكون صدى لما ترتعش به الرواية العالمية من تطورات وانقلابات تبلغ احيانا حد الشعوذة التى لا يصدقها العقل ولا يرضاها الذوق الذى صنعته عوامل تاريخية عميقة ··

وقد تجنب عبد الحليم عبد الله السير فى هذا الطريق الى غايته ، واقتصر منه على ما تيسر من خطوات ، بعد ان

سار خمسة وعشرين عاما فى الطـــــريق المضاد ، فكانت خطواته هذه على تواضعها فتحا جديدا فى فنه ، لو عاش ـ رحمه الله ـ لاضاف اليه فتوحا أخرى تدنيه من فن الرواية فى نسقه الاكثر جدة وغرابة وتأثيرا •

ولكن هكذا كان ، وليس فى الامـــكان الا ما كان ، او ابدع مما كان ـ على حد قول الامام الغزالى ـ وقد ذهب عبد الحليم عبد الله بدون أن يســـتكمل روايته الاخيرة التى افصحت عن اتجاهه الجديد ، فما العمـــــل الان فى هذه الرواية الناقصة السطور ؟! ••

اتبقى ناقصة ، دالة بنقص صــــفحاتها وتطفيفها على النقص والتطفيف فى حياة صاحبهــا الذى غاله الموت وهو يعد نفسه لمرحلة جديدة من فنه ؟ •• ام يتقـــدم من بين محبيه وعارفى فضله من يرى فى نفسه القدرة على كتــابة ما حال الموت دون كتابته من صفحاتها ؟! ••

ان البعض ممن طالعوا قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تتم يرون ان استكمالها يقربها من كمـــــالها أو تمامها ، والبعض الاخر يفضلونها ناقصة ، ويرون انها تكتمـل من جهة نقصها لا من جهة اكتمالها ••

ويقول اخرون : دعوا روائيا مجهولا من الجيل القادم أو من أى جيل قادم يستكمل هذه الرواية التى لم تتـم ، ان رأى فى استكمالها فائدة لاهل زمانه أو لفريق ولو صـغير من أهل زمانه ••

ولكن هذا كله لا ينفى ان استكمال قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تتم ، يغرى بالجدل ان لم يكن يغرى بالعمل • وقد يكون استكمالها نوعا من تحدى الاقدار •• « وتقدرون فتضحك الاقدار » كما قال أبو العلاء المعـــــرى فى رائع سخريته •

على أننا لو فكرنا فى اسماء الروائيين القادرين لوجدناهم جميعا ـ الا قليلا ـ مختلفين في طريقة الكتابة الروائية عن عبد الحليم عبد الله ، وبخاصة فى روايتـه الاخيرة • فان نجيب محفوظ ويوسف السباعى واحســـان عبد القدوس وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف ادريس ، مختلفـــون فى الاتجاه الفكرى والتكنيك والاسلوب اللغوى ، وهم بطبيعة الحال مختلفون مع عبد الحليم عبد الله ، فلا يمكن لاحدهم ان يتم قصته التى لم تتم ••

وكذلك الجيل الاكبر سنا كتوفيق الحكيم ويحيى حقى ومحمود تيمور •

ولا يبقى بعد هؤلاء ـ ومن اليهم ممن فاتنـا ان نذكرهم ـ الا ابراهيم الوردانى وثروت أباظة ومحمود البدوى •

وهؤلاء يمكن ان نقبض على أحدهم ونقول له : آكمـــل قصة عبد الحليم عبد الله التى لم تكتمل ! ••

فاذا اعتذر الوردانى لان الفروق واضـحة جدا بين لغته ولغة عبد الحليم عبد الله ، واعتذر محمود البـدوى لأكثر من سبب فنى وغير فنى ، لم يبق الا ثروت أباظة •

ان ثروت إباظة هو صنو عبد الحليم عبد الله ، على الاقل فى اللغة والروح الادبية العربيـة ، فاذا اتفق له ان ينهض باستكمال قصة عبد الحليم عبد الله ، ظفر منه قراؤه بأثر روائى تكون له عندهم منزلة خاصة ! •

ورأيي المتـــواضع ـ بعد هذا كله ـ ان تمـــام الروعة والاصالة في الاثر الادبى أو الفنى الذى منع الموت اكتماله ، هو أنه لم يكتمل ولا يكتمل ! •

ورواية عبد الحليم عبد الله ليست بعيدة عن هذا الرأى• الذى هو فى الحقيقة قاعدة عامة يتمســك بها الكثيرون من جمهور الادب والفن ••

فهــرس



الهلال

مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٨٨٨٢ / ٨٩

الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ - ١١٨ - ٤٦٣ - ٦

هذا الكتاب

لا يمكن إحصاء المؤلفات التى نشرت عن نجيب محفوظ ، وبخاصة بعد فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، ويمكن أن يقال إن أدب نجيب محفوظ استحوذ على إعجاب وتقدير النقاد والأدباء فى مصر وسائر البلاد العربية منذ بدأ اسمه يلمع بعد نشر ثلاثيته المشهورة ، ثم أصبح اسم نجيب محفوظ كالضوء المعلق فى الفضاء الأعلى ، يراه الناس كما يرون الرمز والحلم والافق الرفيع .

وكتاب «مع نجيب محفوظ ومعاصريه» الذى يقدمه «كتاب الهلال» بين يدى العام الجديد عام ١٩٩٠ ، هو باقة ورد يقدمها الكتاب الى الأديب الكبير المبدع الذى يتردد اسمه الان مع اسم مصر واسم الامة العربية فى أربعة انحاء الكرة الأرضية .

ويقدم كتاب «مع نجيب محفوظ ومعاصريه» عددا من كبار الادباء والمفكرين الذين عاصروا نجيب محفوظ منذ نشأته وبين الستينات والسبعينات بوجه خاص ، وحسبك من هؤلاء الاعلام : توفيق الحكيم وفتحى رضوان ويوسف ادريس وانيس منصور ومصطفى محمود وصلاح عبدالصبور ومحمد عبدالحليم عبدالله .

للغسالات
الأوتوماتيكية

FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES

Lolly

PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT

لولي

- رغوة محدودة ممتدة المفعول
- الوحيد الذي يتميز باحتو
على أنزيمات فعاله ...
لها القدرة على إزالـ
البقع البروتينية

أسلوب عصري للتنظيف
ذو أداء فعال متميز